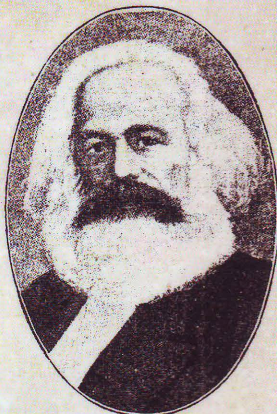
مريم مجيدي

ماركس والدمية





رواية



المركز الثقافي العربي

جائزة غونكور للرواية الأولى 2017

مريم مجيدي

ماركس والدمية

رواية

ترجمة: معن عاقل



المركز الثقافي العربي

الكتاب

ماركس والدمية

تأليف

مريم مجيدي

ترجمة

معن عاقل

الطبعة

الأولى، 2017

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-862-6

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:

Marx et la poupée

Maryam Madjidi

Publié par l'intermédiaire de Mon Agent et Compagnie
6 rue Victor Hugo –
73000 Chambéry, France
www.monagentetcompagnie.com

إلى عباس

الولادة الأولى

«ليس الوطن إلا مخيماً في الصحراء».

مثل من التيبت

«ليست الحياة مزحة،
وأنت ستأخذها على محمل الجد،
لكنَّك ستأخذها على محمل الجد إلى درجة،
أن تعقد ذراعيك، مثلاً، وتسند ظهرك إلى الجدار،
أو أنْ تعيش في مختبر مرتدياً مريولاً أبيض،
وتضع نظارة كبيرة،
ستموت من أجل أن يحيا الناس،
الناس الذين لن ترى حتى وجوههم.
وستموت وأنت تعرف أنَّه ليس ثمة شيء،
أجمل وأكثر حقيقية من الحياة».

ناظم حكمت

الحجر

رجل جالس في زنزانته وحيداً.
يمسك حجراً بيده، وإبرة خياطة بالأخرى.
يحفر الحجر برأس الإبرة.
ينقش اسماً.

كل يوم، يحفر وينحت هذا الاسم على الحجر. هذا يحميه من الجنون في سجنه.

هذا الاسم هو مريم. ولدت منذ فترة قصيرة وسعياً منه للتعويض عن غيابه عنها، يصنع هديَّة يأمل أن يقدِّمها لها يوماً.

وجد هذا الحجر في باحة السجن ونجح سراً في اختلاس إبرة خياطة صغيرة.

إنَّها طريقته ليقول إنَّه يفكر فيها، بهذه الرضيعة التي لم تبلغ من العمر سوى بضعة أيام، والحياة ما زالت أمامها.

كان يا ما كان، كان بطن الأم

كانت فتاة صغيرة تنمو في رحم امرأة.

- لا ، لن تذهبي للتظاهر ، فأنت امرأة وهذا خطر.

أخوها البكر صفعها للتو صفعة قويّة. لم تقل شيئاً لكنّها غرست نظرتها السوداء كامرأة عنيدة في عينيه وغادرت وهي ترفع قبضتها بكبرياء في الشارع وامتزج صوتها بصوت الحشد الغاضب. ستتلقى الكثير من الصفعات والشتائم أيضاً لكن لا يمكن لشيء أن يوقفها في سن العشرين، لا صفعات الأخ ولا حملها ولا حتى الخوف من أن تُقتل.

1980 - جامعة طهران

سحابة دخان في البعيد، طلقات نارية، صيحات.

أخاف وأشعر بالخطر، فأتقوقع في قاع الرحم، لكن هذا الرحم يهرع نحو الموت بقوة لا تُقهر.

تركض الأم الشابة في أروقة الجامعة. توشك أن تسقط: كادت أن تنزلق فوق بركة دم يفضي أثرها إلى قاعة تدريس وتخرج منها صرخات مؤلمة.

تقترب وتنظر. ترى عبر الباب المنفرج فتاة شابة ممدّدة فوق طاولة، ورجل يحاول اغتصابها. وبجانبها، على الأرض، شابّ تحطّمت جمجمته بضربات عصا. تضع يدها على فمها لتكتم صرخة ذعر.

يستولي عليها الرعب وترتعد ساقاها.

تتطاير الأوراق في كلّ مكان، أوراق المحاضرات، بطاقات التسجيل، الملفات. صفحات الكتب ممزقة؛ رفوفٌ بأكملها مقلوبة؛ أيدٍ تفتشُ في الأدراج؛ أفواهٌ تصرخ. حجاب النساء يُداس؛ أيدٍ تنتف شعرهنَّ. نساءٌ تُجرّ على الأرض، يتبادلنَ الكلام بينهنَّ على قدر ما يستطعنَ والرجال الذين يجروهنَّ ينعتوهنَّ بالعاهرات القذرات. لهؤلاء الرجال عيون محتقنة بالدم ويمتشقون عصياً موتدة بالمسامير. يصرخون «الله أكبر».

صوت جمجمة تتحطم.

ما زالت تركض، لكنَّها تفشل في إيجاد مخرج. ترى شباباً يسقطون على الأرض؛ تسمعُ صرخات، تنزف أذناها؛ تودّ أن تختفي -أنْ تصبح مثل نملة صغيرة- وتندسّ في زاوية مع طفلتها.

طفلتها. تتذكر فجأة أنَّها حامل.

أمي تحتضن حياتي لكنَّ الموت يرقص حولها هازئاً، محنيّ الظهر؛ ذراعاه العظميان الطويلان يريدان انتزاع طفلتها منها؛ يقترب فمه الخالي من الأسنان من المرأة الشابة الحامل ليلتهمها.

رآها رجلان، تتدلى من طرفي ذراعيهما عصي موتدة بالمسامير، يتقدّمان نحوها. نافذة مفتوحة.

يجب عليها أنْ تقفز من الطابق الثاني وهي حامل في الشهر السابع، تتردّد، تلتفت ويقع نظرها على العصي؛ وها هي تشعر أنْ المسامير تنغرس في لحمها.

تقفز.

هي تقفز وأنا أسقط.

أنتِ معلَّقة في الهواء وأنا مَن أسقط.

أسقط ويتجوف بطنكِ، فألبدُ حتى أتلاشى.

أسقط وتتخلّين عني في هذا البطن المعلّق في الفراغ.

ترمينني خارجك. أول تخلٍّ. أول جرح حبّ.

أنتِ ملاك بلا أجنحة، يا مجنونتي غير المسؤولة، يا قاتلتي اللطيفة؛ في تلك اللحظة، حفرْتِ ثقباً فيَّ ستتجذّر فيه كل آلام حياتي المقبلة.

تسقطين وأموت لمدة ثانية في رحمك الذي أصبح قبراً.

الأم ممدّدة على الأرض، لا تستطيع حراكاً، ألمٌ مبرح في ساقها. رأسها متّجه نحو السماء، عيناها جاحظتان، تحدق في السحب البيضاء. ترى في سحابة شكلَ رأس حصان. يتشوّش نظرها، ويغدو رأسها ثقيلاً؛ وبالضبط قبل أن تستغرق في سبات عميق، تضع يديها على بطنها.

تتحرك الطفلة.

كان يا ما كان، كان صوت الجدة

في البداية، هي صوتٌ، صوتٌ فقط بالنسبة لي. يتناهى صوتها إليّ عبر جدار البشرة واللحم والدم وعبر المشيمة التي تحميني من بربرية العالم الخارجي.

صوتها ضعيف، معدني، ذو نبرات حادة قصيرة؛ إنَّه دنتيلا ترفرف في الريح لكنَّها تخفي في زرداتها إبرة صغيرة منسية، مستعدّة للوخز على الفور، دفاعاً عن نفسها ولتُعيدنا إلى جادّة الصواب.

- أنتِ لستِ في وعيك إطلاقاً! ستقتلين نفسكِ وتقتلين حفيدتي الأولى.

- يجب أنْ أفعل ذلك. لا يمكنني أن أترك الرفاق يُقتلون هكذا.

- لعلك أنقذتِ واحداً منهم، ببطنك الكبير وأنتِ في الشهر السابع من الحمل؟

- لا، لم أنقذ أحداً منهم، لكنَّني رأيت.

- وماذا رأيتِ؟

- ماما، لو تعرفين... يجب ألّا ننسى هذا أبداً.

- كفّي عن هذا الهذيان، هل تسمعيني؟ ستبقينَ هنا حتى ولادتك. وبعد ذلك لتذهبي إلى الجحيم!

- سأشهد بما رأيته بأم عينيَّ.

- «تشهدين»، لكن ماذا تعني «الشهادة»؟

- وهذه الطفلة ستشهد بدورها، أعرف ذلك.

- هذه الطفلة، ستحاولين منحها ثلاثة أشهر من الراحة. هل ترين هذا المفتاح؟ إنَّه مفتاح الغرفة، سأحبسك فيها حتى يوم الولادة.

وها أنتِ محتَجَزَة في منزل جدّتي.

إنَّكِ ممدّدة على أريكة طريَّة في الصالون. الجوّ لطيف. أمٌّ تُطعم ابنتها التي تُرضع طفلتها. أيدي جدتي مشغولة. تُحَضِّرُ الطعام؛ تفوح رائحة الرز الشهية بالزبدة والزعفران من المطبخ.

أحبُّ جدتي، حاميتي العظيمة. كنتُ أعرف رنّة صوتها على الفور وأنا في جوف هذا البطن المضطرِب. أتمنى يا ماما معصومة أنْ تأخذينا رهائن إلى الأبد في هذا المنزل، وأن لا تدعينا نغادره ثانية. أعطِنا أيضاً أطباقاً شهية وشاياً ودفئاً وقطع حلوى. اعتني بمنزلي الأول. احتضنينا وأَخْرِسي صراخ العالم، وحدِّثينا أيضاً. ثمة ضجيج إبريق الشاي الذي يصفر فوق النار. تتمايل شجرة الكرمة على الجدران، وقطّة تعبُر خلسةً، وأمي تداعب بطنها. وها هي ترتاح أخيراً مثل امرأة حامل عاقلة. بعيداً عن المظاهرات والمنشورات والمسامير المغروسة في جمجمة الشباب. تُغمض

عينيها لتنسى؛ لكنَّ الصورة المُرعِبَة تعود باستمرار إلى تحت جفنيها لتعذِّبها. جيشٌ من الأشباح بلا أفواه، أنتم تطالبون أن نُدْلي بشهادتنا لكنْ ليس الآن، من فضلكم، دعونا ننعم بالسلام، اذهبوا. أركُلُكم بقدمي لأطردكم. تنتفض أمي. هذا حسن، لقد أعدتكِ إلى شاطئ الحياة، وإلى صوت جدّتي أيضاً. تقول لكلينا، سنبقيكِ بعيداً عنهم.

كان يا ما كان، كانت عينا الأم

تقضي ساعات في النظر إلى عيني أمِّها. تصدح عينا الأم بألحانٍ صامتة تحاول الفتاة الصغيرة أن تكتبها على دفاترها المدرسية.

إعطاء صوتٍ لعينيكِ.

تتكلّم الأم قليلاً. تدور الأحلام حول رأسها كما تحوم الطيور فوق أبراج الصمت(*). روَتْ للفتاة الصغيرة ذات يوم أنّ أجدادها كانوا يضعون أمواتهم فوق هذه الأبراج الضخمة، أبراج الصمت لتأتي الطيور الجارحة وتلتهمهم. لأنّه كان يجب ألّا تُلَوِّثَ الجثة التراب والنار المقدَّسَين.

(*) أبراج الصمت (في الفارسية، دخمة) وهي أبراج دائرية في منطقة صحراوية نائية يستخدمها الزرادشتيون ويضعون فوقها جثة المتوفى لتأتي الطيور الجارحة وتأكلها.

ترى أحلام أمها تحوم فوق رأسها، وتحاول أنْ تمسك أحد هذه الطيور بألفِ حيلة، لكنَّها لم تفلح. لذلك ترسمها على أوراق منفصلة تغطي أرض غرفتها.

هذه الرسوم هي فسيفساء حبّي لكِ، هي محاولاتي الخجولة للاقتراب وشمّ رائحة أحلامك ولو من بعيد.

غائبة، لقد رأيتكِ لزمنٍ طويل غائبة. غافلة عن الحياة والأمومة والرغبة. كنتِ تنزلقين ببطء فوق الحياة مع ابتسامة رضى.

وإذ أكتب اليوم، فهذا على الأرجح لأنَّكِ كنت تكتبين. أسرقُ صوركِ من القصائد التي كَتَبْتِها وقرأتِها لي. أحسستُ بالرهبة في كلّ مرة كنتِ تفتحين فيها مفكّرتك السوداء المملوءة بالأوراق والرسائل وقصاصات الورق التي كتبتِ عليها بسرعة أبياتاً وقصائدَ غير مكتملة أحياناً. ظلّ ينتابني الخوف منها دوماً. خوفٌ من روحك، خوفٌ من الذكريات التي قد تنبعث، خوفٌ من هذا الصوت الصامت لزمن طويل والذي كان يبدأ بالكلام فجأة. كنتُ أريد أن يتوقّف ذلك بسرعة وكنت أشعر بالارتياح حين تطبقين مفكّرتك السوداء الثقيلة. كنتُ قد نجحتُ في التقاط صورةٍ طائرةٍ من هنا وهناك، وكان هذا يكفيني. سارقةٌ صغيرة لمجوهرات روحك. كنتُ أفضِّل أن أحزرك وأتخيلك.

أكتبكِ.

لا أكتبُ لـ «أنتِ» ولا «لك»، لا، حريٌّ بي القول «أكتبكِ».

ألطِّخُ وجهكِ بأحلام يقظتي، أمزجه بأكاذيبي، وبكلّ ما يواسيني، أغمسُ يديَّ في علب الألوان بحثاً عن عينيكِ.

أغمسكِ في سوائلَ مصنوعةٍ من أوهامي وقلقي، وأُخْرِجَكِ منها، طاهرَة، سامية، جديدة. أودُّ أن أسحبكِ إلى اللانهائية حتى لا تموتي أبداً.

أمدِّدكِ على طاولة عملي. أُشَرِّحُكِ. أفتح ذراعيكِ، أرفع نهديكِ، أعبثُ ببطنك لأجد فيه سرّ ولادتي.

الهِبَة

تنظر عينا الأم إلى ريشة طائرةٍ في البعيد. تعرف أنَّ عليهنَّ الرحيل. اشترتْ ملابسَ وأحذية ضرورية لهم هناك. ويجب أن تعطي الطفلة الصغيرة الدمى لصبْيَّةِ الحي. ليس لديها أية رغبة بذلك. لكنَّ أبويها علَّماها أن الملكيَّة شيء قبيح. لقد قرآ هذا في كتاب لـ «مَكارينكو». لم تفهم ماذا تعني هذه الكلمة، «المُلكية».

- لماذا يجب أنْ أهِبَ الدمى؟
- لأنَّه لا يمكننا حملها معنا إلى هناك.
- لكنَّني لا أريد.
- اسمعي، جميل أن نعطي، هل تفهمين؟
- لا، أنا مُجبَرَة على ذلك، وهذا أمر مختلف. لا أريد.

تتنهّد الأم.

- تباً، ماذا فعلنا لنُرزَق بطفلة مثلك! لا تفقه شيئاً في الشيوعية.

كلمة أخرى أيضاً لم تفهمها الطفلة ذات السنوات الخمس.

تلجأ إلى غرفتها، وتحت خيمةٍ صَنَعَتها من كرسّيين وغطاء، تجمع دُمَاها حولها وتكلِّمها:

- اسمعوني، يريدوننا أن نفترق لكنني لا أريد، لذلك سنبقى هنا، ولن نتحرك وسأروي لكم الكثير من القصص حتى ينام الناس وعندئذٍ سأحفر حُفرة صغيرة في الأرض، عند جذع الشجرة في الحديقة وأخبِّئكم فيها. وسأعود للبحث عنكم فيما بعد، لكنَّني سأعود بسرعة وسنلعب من جديد معاً. ليس لديّ ثقة بالأطفال الآخرين في الحي. وإنَّهم متوحّشون. وسيُوسِعونكم ضرباً. أمَّا أنا فأعرف كيف أهتمّ بكم ولن أتخلَّى عنكم.

وتفتح الطفلة الصغيرة كتاباً وتروي قصة لمجموعة الدمى التي تنظر إليها دون أنْ تنبَس ببنت شفة، وهي قلقة على مصيرها.

كان يا ما كان

ملك يُدعى «خصلة النار». كان ملكاً على بلادٍ طقسها بارد دوماً ويخيم عليها الظلام دوماً. كان قد حَرَمَ جميع المنازل من النار المقدَّسة بحيث لا يستطيع أحد الحصول عليها في أيّ مكان. وبعد غياب الشمس كانت المدينة ترتدي ببطء غطاءً سميكاً أسود. ولم يكُن بمقدور أحدٍ أن يطهو الطعام ويتدفّأ في الشتاء، ويسبك المعادن، ولا أن يجد طريقه في الليل ويتأمّل وجه مَن يحبّهم على ضوء شمعة ويمثّل أدوار أخْيِلَة الظلّ ولا أن يقرأ حتى ساعة متأخرة

من الليل. كانت الحياة تتوقّف بعد أن يغيب آخر شعاع ضوءٍ عن المدينة. وتغدو جميع نوافذ المنازل عيوناً سوداء كبيرة عمياء.

جميع النوافذ إلّا واحدة؛ نافذة قصر الملك. كان هذا الأخير قد أمرَ بإخماد كلّ ما يشبه من قريب أو بعيد النار واحتجز بعد ذلك الشّعلة الأخيرة التي لا تزال مضطرمة في خصلة من شعره تتدلّى على جبهته، ولذلك يلقِّبونه «خصلة النار».

وعندما يحتاج إلى النار، يُقرِّبُ عوداً من جبينه ليُشعله ويُحيط نفسه بالضوء والدِّفء.

وذات يوم قرر صبي صغير يدعى شجاع، هذا يعني «مقدام»، أنْ يقترب من الملك خصلة النار ليسرق منه شعلةً من هذه النار السحريَّة التي يحملها فوق رأسه؛ سحريّة، لأنَّها لا تنطفئ أبداً.

انتظر بفارغ الصبر ليلة اكتمال القمر ليُنير له دربه. وتوجَّه إلى قصر الملك بمنتهى الحذر لئلّا يُمسِك به الحراس.

كان القصر فخماً، مُناراً بألف ضوء، ولم يسبق له أنْ رأى هذا العدد من الشموع والمشاعل والأضواء، حتى إنّ عينيه المبهورتين ظنَّتا أنَّهما تريان شهباً في السماء. أخذ دفءٌ عذبٌ يلامس بشرته ويخدِّرها، وراح يعوم في بحر الضياء. فجأة، استيقظ شجاع من غفلته وهو يهزّ رأسه: فلديه مهمة عليه إنجازها. تمالَكَ نفسه وفتح عينيه وأذنيه جيداً وأحسّ أنَّه يسمع صوت شخير خفيف في الطابق. صعد الدرجات على رؤوس أصابعه وصار الشخير مسموعاً بوضوح أكبر. تقدم نحو إحدى الحجرات. أدار بهدوء قبضة الباب ودخل. كان الملك راقداً في سريره، نائماً وقبضتاه مضمومتان.

أخرَجَ شجاع عوداً من جيبه وقرَّبه من خصلة الملك السحريَّة. اشتعل العود فجأة وقَفَلَ عائداً بسرعة إلى القرية.

تعالَت صيحات الفرح في أرجاء المملكة: ولم تكَد تمضي ساعات حتى صار لدى السكان نارٌ في منازلهم.

احتفظوا بها في أفرانهم الكبيرة التي صار ينبغي تغذيتها بالحطب. وطوال الليل والنهار التالي صَنَعَ السكان بلا توقّف الأسلحة من رماح وسيوف في أقبية بيوتهم. كانوا يريدون الإطاحة بالملك الذي أبقاهم زمناً طويلاً في ظلام دامس.

وفي المساء التالي، توجَّه السكانُ المدجَّجون بالأسلحة إلى قصر الملك وحين رأى هذا الأخير وسط ذهول كبير لهبَ المشاعل تضيء السماء السوداء وتلامس رؤوس الرماح والسيوف المسنونة، أدركَ أنّ أجَلَه دنا. فولّى هارباً فوق صهوة جواد.

أقام سكان القرية احتفالاً كبيراً: أشعلوا ناراً عملاقة ورقصوا حولها طوال الليل.

تغلق الفتاة الكتاب، تنهض وتتناول كتاباً آخر وتستمرّ في القراءة كأنَّها تريد أن تُبعد لحظة فراقهم.

اضطررتُ أيضاً أن أعطي ملابسي وكُتبي وأثاث حجرتي. كانت هذه الهبة تحدُث كلّ مرة وسط الصراخ والبكاء.

لكنَّني كنتُ ألزم الصمت أمام الأطفال الذين يأتون إلى منزلنا وينتظرون للحصول على دُميَة أو كتاب. وبِهيئة رزينة ورسميَّة، أناول الدميَة بصمت.

أرى ثانية الدميَة بين أيدي أطفال الحي الفقراء، بعيونهم المندهشة وابتساماتهم الخجولة. لكن ما إن يُغلق الباب، حتى أهرع إلى غرفتي وهناك، يستولي عليَّ حزن عميق لرؤية هذه الحجرة تفرغ شيئاً فشيئاً.

عندئذٍ أستأنف البكاء، وأحياناً العويل، حتى ينتهي بي الأمر حتماً إلى الغرق في حالة من الوهن والخمول، وعيناي معلّقتان في الفراغ. كنت أشعر أنَّني وحيدة في العالم. وتترسخ لديَّ قناعة بأنَّني أعيش مع وحشَين سيحرمانني من كلّ شيء.

شدَّت جدتي شعرها حين علمَت أنّ الدمى التي اختارَتها لي بعناية وحبّ أُعْطِيَت إلى أطفال الحي. حاولتْ منعهما لكن لا شيء كان يُمكنه ثني أبواي عن عزمهما. كانا مقتنعين أنَّهما يعلِّمانني بذلك أحد دروس الحياة الأساسية: الانفصال عن الأشياء المادية وإلغاء المُلكية.

كنتُ أذهب عندئذٍ للتكوّر في تلك الأحضان الطريّة والدافئة؛ كان ذلك عزائي الوحيد. راحت جدَّتي تردد أنَّها ستشتري لي دُمى أخرى غيرها، وأنَّه يجب ألّا أبكي، وأنَّها ستصلّي لأجلي ضد هؤلاء الشيوعيين البرابرة وأصابعها اللطيفة ذات الأظافر المطليَّة التي تفوح برائحة زهر البرتقال والورد تمسح دموعي الغزيرة المحمَّلة بكلّ يأس العالم.

نوشابي

إنَّه عيد ميلادي. بلغتُ سن الخامسة من عمري. وثمّة قالب كاتو كبير على الطاولة مغطى بالكريما.

هنالك شخص غائب: خالي أخو والدتي. يُدعى سمعان. يهديني دوماً في عيد ميلادي وردة. وردة واحدة تُدعى «غولي مريم». إنَّه طقسنا: في كلّ عيد ميلاد وردة غولي مريم. أحبّ رائحتها.

هذه المرة، لم يكن موجوداً. لن يأتي. ولن توجد وردة غولي مريم بمناسبة عيدي الخامس.

يرنّ جرس الهاتف. ترفع أمي السماعة. تصغي ولا تتكلم. تضع السماعة.

لقد اعْتُقل. وهو موجود في السجن في إيفان. كان يحمل معه منشورات. وفيما بعد حين فتّشت الشرطة منزله، وجدَت أيضاً سلاحاً. عمره تسعة عشر عاماً ونيّف.

نساءٌ متّشحات بالسواد يقفن في طابورٍ لرؤية معتقليهم. أشباحٌ

سوداء صامتة تحمل في أذرعها سلالَ مؤونة. ينتظرن دورهنَّ في الزيارة.

أقف في الطابور مع جدتي وبعد ذلك بقليلٍ أصبحتُ جالسةً مقابل خالي. ثمة زجاجٌ يفصل بيننا. أكلِّمه بواسطة هاتف. يبتسم بصعوبة. أعرف ما تكلِّفه هذه الابتسامة. أقول له إنَّ هؤلاء الرجال الملتحين قَذرون وقبيحون. يقهقه ويستدرك واضعاً إصبعه على فمه ومشيراً أنْ أصمت. لا تتحدّثي بهذه الطريقة هنا. تؤنِّبني جدتي أيضاً. أضجَر وأرغب بالمغادرة. أكره هذا المكان، فخالي موجودٌ في قفص يحرسه رجال مقزِّزون.

أفكِّر في الدمى التي سأضطرّ للتخلي عنها.

لا أريد أن أكون مثله في هذا القفص. أريد الذهاب إلى هناك. ربما سيكون الوضع أفضل هناك.

2005 - باريس - شرفة مقهى سانسير في آبيس

الوقت متأخر، تجاوز منتصف الليل. عمري خمسة وعشرون عاماً. خالي سمعان موجود، يجلس مقابلي، وأمي أيضاً. يتحدّث باستمرار. لم يكن قطّ ثرثاراً إلى هذا الحدّ. شرب قليلاً، فانطلق لسانه. إنَّها المرة الأولى التي يَذكر فيها السجن.

قضيتُ ثماني سنوات في واحدٍ من أسوأ سجون العالم. وتركتُ فيه شعري وأسناني وشبابي. يشرب جرعة بيرة.

في العام الأول تقاسمتُ زنزانتي مع صحافي كبير ملتزم كانت

كتاباته مشهورة في الأوساط الفكرية الإيرانية. كنتُ فخوراً بالتشارك معه في زنزانتي. كان لدى هذا المقاوم الشهير هوسٌ مضحك: كان يشاهد كلّ صباح فيلم الرسوم المتحركة ذاته في التلفاز. ولم يكن في الرسم المتحرك شيء استثنائي، فهو تافه مثل كثير من البرامج الأخرى. كان يشاهد هذا البرنامج بمواظبة وتركيز شديدين كلّ صباح. كان يتابع كلّ الحلقات ولم يكن بمقدور أي شيء أن يجعله يفوت دقيقة واحدة من مغامرات الصغيرة نوشابي، وهو اسم شخصيَّة الرسم المتحرك.

ذات يوم، لم أعُد أحتمل، فسألته لماذا يُشاهد هذا البرنامج كلّ يوم. إذْ يُدهشني أنّ صحافياً مثله، شهيراً ومعروفاً، ملتزماً وسجيناً بسبب أفكاره السياسية، يجد فائدة في هذا الرسم المتحرك السخيف وبصراحة أشعرُ بالقلق عليه لأني عزوتُ هذا الوسواس إلى شكلٍ من أشكال النكوص.

رفع الرجل رأسه وحدَّق بي. ابتسَمَ.

أجابني بهدوء:

- هذا ليس رسماً متحركاً سخيفاً وأنا لا أعاني من نكوص، فلا تقلق. هل ترى شخصية نوشابي؟ الزجاجة الصغيرة التي تتكلم في فيلم الرسوم المتحركة، هو صوت زوجتي.

- صوت زوجتك؟

- هذه مهنتها، إنَّها مدبلِجَة. تنطق بصوت هذه الشخصية وأنا أسمع صوتها كل صباح.

عدتُ إلى زنزانتي وكتبتُ في مفكرتي الصغيرة «نوشابي» لئلّا أنسى.

كنت أودّ أن أمضي حياتي في جمع القصص. قصص جميلة. وأن أضعها في محفظة وأحملها معي. وبعد ذلك، في اللحظة المناسبة، أقدِّمها لأُذُنٍ مرهَفَة حتى أرى السحر يولد في النظرة. أودّ أن أنثرَ القصص على مسامع كلّ الكائنات. أريدها أن تُزهر، وتنبت وروداً معطَّرة عوضاً عن كلّ تلك الورود الضائعة والغائبة، عوضاً عن كلّ ورود غولي مريم التي كان يُفترضُ بي تقديمها ولم أستطِع.

عباس

يقع منزلنا في حي طهرانبارس. وهو مكان تُعقد فيه الاجتماعات السياسية السريّة. في كلّ أسبوع، يأتي أشخاصٌ إلى منزلنا، حين يجتازون عتبة الباب، يطرقون وجوههم في الأرض ويحدِّقون بعيونهم في أحذيتهم فقط أو يغمضونها تماماً لئلّا يروا المسافة ويعرفون المكان. هذا هو العُرف: فإذا اعتُقل أحدهم، لن يستطيع كشفَ المكان. وعندما يصبحون داخل المنزل، يرفعون رؤوسهم ويفتحون عيونهم وأنا أراقبهم بانتباه لأرى إن كنت أعرف أحدهم. أثناء هذه الاجتماعات التي يكتب فيها أشخاص مهمّون المنشورات ويدخِّنون عدداً لا يحصى من لفافات التبغ، كنت أنزوي في أحد أركان البيت، ألعب أو بالأحرى أتظاهر باللعب، فأنا أعرف أنَّه يجب عليَّ ألّا أزعجهم؛ فهذه شؤونٌ تخصّ الكبار. إضافة إلى أنَّ أيّاً منهم لم يُعرني اهتماماً بحق. لا أحد منهم باستثناء شخص واحد.

يُدعى عباس. هو الوحيد الذي يهتمّ بي من بين هؤلاء المجهولين. يقترب مني ويرفعني ويقذفني إلى أعلى ضاحكاً. يتحدَّث

بصوت جهوري أنّ هذه الطفلة تمنحه القوة، قوة للنضال، لامتشاق السلاح، وأنَّه يريد القيام بالثورة من جديد لأجل كلّ أطفال البلد ضدّ أولئك القذرين، وأنَّه مستعدّ للموت في سبيل جميع الأطفال الذين ولدوا في عهد الثورة. ينظر إليَّ مبتسماً ويضعني على الأرض.

تلمع عيناه حين يبتسم وحتى حين لا يبتسم. لدَيه نظرة الملهمين. عباس، إنَّه شهاب: لن يعيش حياةً مديدة لأنَّ قلبه لن يعود يتحمّل ذات يوم استيعاب كلّ هذا الحب الذي يهِبه. ذات يوم، سينفجر قلبه وآمل أن يتلطَّخ العالم بحبه.

أنا أنظر إليه وأقرأ كلّ هذا في عينيه السوداوين الواسعتين المفعَمَتين بالحياة.

ذات صباح، تطرق أم عباس بابنا. عيناها حمراوان. تتحدّث بصعوبة. تفهم أمي كلّ شيء. تدعوها للدخول.

ألقي القبض على ابني، جاؤوا في منتصف الليل، حين كان نائماً. انتزعوه من فراشه وجرّوه إلى الخارج. والأسوأ أنَّهم لم يدعوا له مجالاً لارتداء ملابسه وانتعال حذائه. نجح في عجلة من أمره أن ينتعل فردةَ خفٍّ واحدة، خفٌّ مهترئ من البلاستيك؛ فهرعتُ خلفهم إلى الطريق لإعطائه الفردة الأخرى لكنَّني تأخرت، والصورة الأخيرة التي أتذكرها عنه هي قدمه الحافية على إسفلت الطريق البارد، قبل أن يتلاشى داخل السيارة.

تسكت. وبحركة بطيئة، تفتح حقيبة يدها وتُخرِج خفّاً وتضعه على طاولتنا.

هذا ما تركوه لأمه، هذا ما بقي لي من ابني: فردة خفٍّ بلاستيكي. وتكرِّر هذه الكلمة، تهمس بها بعينين جاحظتين، دون أن تنظر إلينا، وهي تحدِّق بهذا الشيء الموضوع فوق الطاولة. تخيفني هذه المرأة، فأتراجع وأختبئ خلف ساق أمي. لديها عينان مدوَّرتان تريان أشياء لا نستطيع رؤيتها.

صادفناها في الشارع بعد بضعة أيام. اقتربتْ أمي لإلقاء التحية عليها. نظرتْ إلينا باستغرابٍ مثلَ حيوان مُطارَد، فلم تلحّ أمي عليها، وتابَعنا طريقنا. لم تتعرَّف علينا. سألتُ أمي عن سبب حالتها تلك، وعن عينيها الجاحظتين والواسعتين الخاليتين من أيِّ تعبير. عن سبب اضطرابها الكبير. أجابتني أمي بخشونة: «صارت مجنونة». وبعد بضعة أشهر ماتَ الأب إثر جلطة قلبية.

وبقيتُ أنا أتساءل دوماً: «وعباس؟ أين عباس؟»، فلم يُجِبْني أحد. كنتُ أتناسى سؤالي أحياناً، وأزداد إلحاحاً عليه أحياناً أخرى. وذات يوم ألححتُ أكثر من المعتاد وأنا أشدّ تنورة أمي، فقالت لي وشيءٌ من الإثم يرتسم على عينيها: «أصبح شهاباً، هناك في السماء». وما قصة هذا الشهاب؟ أصبحتُ أكثر ارتياباً. التفتُّ إلى والدي وأنا مصمِّمة على معرفة حقيقة مصير عباس.

- بابا، أين عباس؟

- مات. أعدموه في السجن.

صُدِمْتُ. اغرورقت عيناي بالدموع. ركضتُ لأختبئ في الحديقة، عند جذع شجرة تين ستحميني من جنون الراشدين.

أتساءل بعد فوات الأوان ألم يكُن من الأفضل لي تبنّي قصة الشهاب.

عباس، الشاب الثوري، عاشق الحياة، خفّ البلاستيك، السجين، المقتول. لم أزَل أسمع همس تلك الأم المسكينة التي ردَّدت حتى نهاية حياتها هذه الكلمات: خفّ البلاستيك. أسمع همس جميع الأمهات اللواتي يرُدِّدنَ كلماتهنَّ المتألمة، كلماتهنَّ الملدوغة، كلماتهنَّ عن الظلم.

طفلة الحزب

نمشي نحن الثلاثة في الطريق. أجلس على كتفي والدي ولم أكَد أبلغ العام من عمري. زوجان وطفلتهما يتنزّهون. أمرٌ عادي جداً. في داخل ملابسي، بجانب حفاضتي، مَحاضر اجتماعات الحزب الذي يُناضل والديَّ لأجله. يجب عليهما أن ينقلا هذه الوثائق إلى سارية أخرى تقع بعيداً عن المدينة. خطرتْ ببال أبي فكرة لامعة، أن يلفَّ هذه الوثائق بالنايلون ويدسها بجانب حفاضتي. كان واثقاً أنّ الحرس الوطني لن يطلب تفتيش طفلة رضيعة. وفي الحقيقة كانت الفكرة عبقرية إلى حدّ أنَّهم أعاروني لرفاق آخرين كان عليهم تنفيذ المهمة ذاتها: نقلُ مَحاضر أخرى إلى ساريات أخرى. أصبحتُ ابنة الحزب، وسط غضب جدّتي الشديد التي راحت تنتف شعرها وهي تَراهم يعيرون حفيدتها كما يعيرون شيئاً ويستخدمونها لأغراض سياسية.

- مَن هم هؤلاء الناس، هؤلاء المجهولون الذين تُعيرونها لهم؟ لا أستطيع تصديق ذلك: تعيرون طفلة رضيعة! وماذا لو حدث لها

مكروه؟ إنَّها ابنتكم، وليست ابنة الحزب! وأذكِّركم أنَّها حفيدتي الأولى!

لم يمسكوا بنا قط. وفيما بعد، أصبحتْ هذه حكايتنا المفضَّلة. رُحنا نفتخر بها ونرويها لجميع الناس. لكنَّني في الحقيقة لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنّ الأفكار السياسية التي ضحى في سبيلها الكثير من الأشخاص بحياتهم كانت موجودة في حفاضي المملوء بالبراز والبول. وما أزعجني أكثر، كما أزعَجَ جدتي، هو أنَّهم صنعوا مني شيئاً مفيداً وفعالاً تتداوله الأيدي دون أن يراود أبواي أدنى شعور بالقلق أو إحساسٍ بالاستحواذ حيالي.

أشباح بلا أفواه

يستيقظ الأب في منتصف الليل متعرِّقاً، يلاحقه الكابوس نفسه دوماً: إنَّه في صحراء، يمشي ببطء دون هدف محدِّقاً في الأفق، فجأة تتعثّر قدماه بشيء ما، ينظر إلى الأرض ويرى يداً تبرز منها، يدُ ميت. يتابع المشي ثم يتعثّر من جديد، كلّما تقدَّم أكثر، بقدمٍ وقطعة من ذراعٍ وجمجمة، وفي كل مرَة يوشك على السقوط وينتهي به الحال إلى التوقف وهو منهك تماماً، يلتفت وينظر وراءه إلى هذا السهل ويكتشف أكواماً من الجثث، في كل مكان أعضاء وقطع من أجساد بشريَّة، محصولٌ مروع للأرض. فيصرخ ويستيقظ.

توجد مقبرة في شرق طهران، مقبرة خافاران، المعروفة أيضاً باسم «لاناتاباد»، وتعني «مقبرة الملعونين». حين يَعدمون سجيناً سياسياً، يلقون جثته هناك في حفرة جماعية. دون أيّ تسجيل، أو شاهِدة، ولا حتى حجر. أرضٌ فسيحة، قاحلة وسوداء. كان المطر يهطل أحياناً بغزارة فوق المدينة فتظهر الجثث المدفونة بشكلٍ سيئ ثانية على السطح لأنَّ الأرض منحدرة. عندئذٍ يذهب المعارضون

لدفن أمواتهم مرة أخرى باسم الكرامة. كان والدي يذهب إليها مع رفاقه. كانوا يتقيؤون ويمرضون طيلة أسابيع، وتلاحقهم صور الخارجين من الأرض، لكن لا يهم، عليهم القيام بذلك. لا يمكن ترك جثة بلا قبر. لا يمكن ترك الرفاق يتعفّنون هكذا.

أرض ملعونة أم أرض مقدّسة؟

بالنسبة إلى أمهات المفقودين، كانت أرضاً مقدّسة لأنَّها تحتفظ بأجساد أبنائهم الذين ضحوا بأنفسهم على مذبح الحلم. كنَّ يجتمعنَ هناك، فوق هذه القبور الجماعيَّة، دون أن يعرفنَ بالضبط أين دُفن أبناؤهم أو بناتهنَّ لكنَّهن يعرفنَ أنَّهم موجودون في مكان ما تحت هذه الأرض. كُنّ يأتين فجراً وهنَّ يرتدين لباساً أسود طويلاً ترفعه الريح. أخيلة حزينة مهيبة ووقورة. كنَّ يمشين معاً يوحِّدهنَّ الألم ذاته، ونظرة الغضب القاسية المخضّبة بالحزن، يأتين للاستغراق في التأمّل فوق هذه الأضرحة غير المرئية؛ يبكين ويُصلين وينتهي بهنّ الحال إلى الصراخ. كنَّ يصرخنَ «الله أكبر» وهنَّ يرفعنَ قبضاتهن إلى السماء ويشتُمنَ الوحوش الذين اقترفوا ذلك. كنَّ يقلنَ إنهنَّ سينتقمنَ، وأنَّ مَن يحكمون هذا البلد ليسوا بشراً وإنَّما وحوش متعطِّشة للدم.

أنبش الموتى وأنا أكتب. أهذه هي كتابتي إذاً؟ عبارة عن عمل حفار القبور بشكل معكوس. أنا أيضاً أشعر بالغثيان أحياناً، يصيبني في حلقي وفي بطني. أتنزّه في سهلٍ فسيح وصامت يشبه مقبرة الملعونين وأنبش الذكريات والحكايا والقصص المؤلمة أو المؤثرة. هذا ينشر رائحة أحياناً. ورائحة الموت والماضي ممضَّة. أجد نفسي

مرة أخرى مع كلّ أولئك الموتى الذين يحدِّقون فيَّ ويتضرّعون إليَّ لأحكي عنهم. سيلاحقونني كما لاحقوا أبي الذي كان يستيقظ كلّ ليلة متعرِّقاً لمدة سنوات. يقتفون أثري، وهم غير مرئيين. أحياناً، ألتفتُ على حين غرَّة في الطريق وأرى أفواهاً ممحيّة.

الخوف

امرأة في أحد الأسواق. تمكثُ هناك ساكنة، وتراقب النساء الأخريات وهنَّ يتسوقنَ. يشترينَ الفاكهة والخُضروات، الخبز واللحم إنْ وُجِد، والسكاكر لأجل أبنائهم. يدفعن عربات أطفال رضَّع، يحملن سلالاً وأكياساً معبّأة بالمؤن. يحضرنَ الطعام، ينشغلنَ بمنازلهن، يزرنَ أسرهنَّ. تدرك المرأة الواقفة هناك أنَّها مختلفة عنهنَّ، وأنَّها لا تعرف هذه الطمأنينة، وأنَّها لن تتسوق أبداً مثل جميع الناس وتشعر بالحنين إلى هذه الحياة الهادئة التي لن تحظَ بها أبداً. تنظر إلى رفوف البضائع حولها ويبدو لها كلّ شيء غامضاً، نائياً، كما في حلم. وحتى هؤلاء النسوة لا يمكن بلوغهنَّ، وهنَّ أبعد من أنْ تستطيع التحدث إليهنَّ. تمسّ بيدها معطف امرأة، حجابَ أخرى، وحقيبة يد امرأة ثالثة، مرَّت للتو، لترى إن كنَّ نساء حقيقيات فعلاً. يصعب عليها معرفة هذه الحياة اليوميَّة واللحظات البسيطة: الذهاب إلى السوق مع طفلتها، تناول بطيخة صفراء وشمّها، تحسّس الفاكهة لاختيارها بعناية، تبادل بضع كلمات أو مزحات مع البائع أو الجارة. وحدها الأفكار والمنشورات

والاجتماعات والنضال هي المهمة. إطراق العيون في الأرض أو إغماضها، عدم النظر إلى الطريق، عدم تحديد هوية أيّ شيء، وحتى عدم الاستماع لأيّ شيء، وألّا يعرف أين هو، وألّا يستطيع بالنتيجة الإبلاغ عن أي شيء، لأنَّه لا يعرف شيئاً البتة، كثيرٌ من الأشخاص اعتُقلوا، ولم يتكلّموا ولم يتفوّهوا بشيء وصمتوا حتى تحت التعذيب، على الأخصّ تحت التعذيب. التعذيب... الحقيقة المؤلمة للتعذيب. ربما أخوها سمعان يُعَذَّب هناك الآن، في هذه الدقيقة بالذات، بينما هي في السوق تفكِّر في هؤلاء النسوة اللاتي لا يشبهنها. تتخيّل بشرته المحروقة بأعقاب لفافات التبغ، المشوّهة، المصعوقة بالكهرباء، وجسده المدمّى ملقى في زاوية زنزانة، ملوثٌ بالبول والبراز. حين كان سمعان صغيراً، كان يعود من المدرسة، ويفتح بسرعة محفظة كتبه ويُنجز وظائفه عند مدخل البيت. كان شغوفاً بالتعليم إلى حدٍّ لا يستطيع معه الانتظار دقيقة حتى يفتح دفتر واجباته المدرسية. كان يستلقي تماماً ونضطر إلى توسيع خطانا للدخول إلى المنزل.

هذا البلد يقتل أفضل أبنائه.

تتداخل أفكارها بضجيج السوق، تبتعد الآن عن الحياة. تشعر بالحزن وهذا يرهقها وترغب أن يتوقّف كلّ ذلك من أجل حياة هادئة مثل كلّ الناس. وأن تصبح مثل كلّ الناس. لكنَّ الأوان فات، كيف سترجع إلى الوراء؟ تُسَكِّنُ من روعها: أكافح من أجل هؤلاء النساء، من أجل أن يحصلنَ على حقوقهنَّ، أجل، لكي يصبحنَ متحررات وقويات، أناضل من أجلهنَّ ومن أجل حياتهنَّ، وأأسفاه إنَّها غلطتي، فأنا لا شيء، ولم يعُد لهذا أهمية.

مكان مجهول. أطرَقَت الأم برأسها في الأرض لكي تأتي إلى هنا، بصُحبة رجل لا تعرفه.

بناءٌ مهجور. نوافذ محطمة. آلات كاتبة، ومعدّات طباعة، يكادان لا يتبادلان النظرات، عيونهما مسمَّرة على الأوراق التي تسوّدها أيادٍ بسرعة فائقة بينما تضرب أيادٍ أخرى على الآلة الكاتبة وتطبعها بمساعدة آلة طباعة يدويَّة. عيونٌ تعيد القراءة وعيون تصحّح. يجب إنجاز العمل بسرعة.

فجأة، يُقرع الباب. تجتاز ريح باردة الحجرة. يحبسان أنفاسهما. لا أحد يتحرّك. صوتٌ من خلف الباب يصيح بكلمة السر. يفتحان الباب.

- يجب إخلاء المكان فوراً. سيُداهمه رجال الباسيج بين لحظة وأخرى.

خوفٌ، موت، تعذيب، تدخُل آلهة الشر إلى هذه القاعة وتدوي في فضائها، وتحلّق فوق رؤوسهم.

تركض الأم، وذراعاها تحملان البيانات والمنشورات. يصرخ رجل بها أن تترك كلّ شيء. تتردّد. كلّ هذا العمل وهذه المخاطرة ذهبوا سدى.

- ارمي كلّ هذا، تباً، هل تريدين الموت أم ماذا؟ اهربي.

تسقط المنشورات، تمشي فوقها، تتدحرج على الأدراج، تتوه في الممرات. أين باب الخروج؟ أين باب الخروج في هذا البناء العاهر؟

وها هي في الخارج، تنظر حولها، ليس لديها أدنى فكرة عن المكان.

تستقلّ سيارة أجرة عامة.

تنظر وراءها عبر الزجاج الخلفي لسيارة الأجرة العامة وترى الباسيج يدخلون إلى البناء. تنكمش في المقعد الخلفي لتُخفي نفسها.

تعود إلى منزلها وتذهب مباشرة إلى المرحاض وتتقيأ. ألعب في إحدى الزوايا. أراقبها. إنَّها شاحبة. تلتقي عيناها الزائغتان بعيني. تهرع نحوي وتحتضنني بين ذراعيها. تضمّني بقوة، وهذا يؤلمني، وتفوح أنفاسها برائحة الليمون المتعفّن.

تنتشر الشائعات في الشارع وفي الآذان كأسراب النحل: اختفى، لم يعُد يسمع أحد خبراً عنه، اعتُقِلَتْ، كانت تعرفنا، ربما هربوا إلى الخارج، ربما، لكنَّهم إذا سُجنا سيُعذَّبان قبل أن يُعدما، الجميع عُذِّبوا قبل إعدامهم، وإذا تكلّما تحت التعذيب وإذا وشيا بنا، وإذا أعطيا عنواننا تحت التعذيب، فما عساك تفعل أنت؟

جاء الخوف بمنتهى الهدوء ليسكن في نظرات الأب والأم، ويجتاح المنزل والجيران والحيّ، ويتسلل إلى الأحاديث العادية مع الجيران ومع الباعة. أصبحتْ أطباق المطبخ مغمَّسة بطعم الخوف، والسهرات مع الأصدقاء أيضاً. الأصوات المألوفة تفرّ من النبرات الغريبة. الأيدي التي تصافح قد تحمل في راحتها أدوات حادة، ويمكن لمجرد مُزحة صغيرة أن تتحوّل إلى تهديد. وفي كلّ مكان، جميع الناس قد يصبحون وُشاة.

يجلس الموت ويلفّ ساقاً فوق ساق على جبال الألبورز المطلّة على طهران.

الكتب المدفونة

لأوّل مرة يشعر الأب والأم بضعف في إيمانهما الثوري. ثمة ما يشبه التصدّع في صرح الالتزام، وهناك تجاعيد تظهر على وجهيهما اللذين كانا حازمَين في السابق. يفتحان عيونهما وينظران إلى منزلهما، إلى صالته الفارغة، دون مفروشات تُذكر، دون سجاد، ودون أي ديكور، ويريان ظلال الرفاق الذين كانوا يجتمعون فيه. يفتحان عيونهما ويلمحان المستقبل لأول مرة، مستقبلهم. يريدان العيش. لهذا عليهما الرحيل.

- سندفنها في الحديقة، عند جذع الشجرة. هذا أفضل مخبأ.

- ولماذا نفعل ذلك؟ أنتِ تعرفين أنَّنا لن نعود أبداً، وحتى لو عدنا فإنَّ هذا المنزل وهذه الحديقة لن يكونا موجودين.

- لا يهم، علينا فعل ذلك. لا يمكننا إلقاؤها أو إحراقها، أو الأسوأ تقديمها لأيّ شخص.

- أجل، هذا صحيح. ستكون هدية مسمومة.

- اذهبي وأحضري الكتب، أنا سأحفر الحفرة.

وتضع الأم في هذه الحفرة ماركس وأنجلز ولينين ومكارينكو وتشي غيفارا وآخرين، ويُهيل الأب فوقها التراب الرطب.

الفتاة الصغيرة موجودة هناك. تراقبهما وهي واقفة عند المدخل. تقول في سرّها إنَّ هذه الحديقة صارت تحتوي الكثير من الأشياء: دُمَاها، والآن كتب أبيها الممنوعة.

أقسمَت أن تعود وتنبش كلّ هذا، فيما بعد، حين تستطيع.

أغسطس 2003 - طهران - حي طهرانبارس

إنَّني بصحبة خالي سمعان، أمام المنزل الذي ولدتُ فيه. لم يعُد المنزل موجوداً والشارع لم يعُد هو ذاته، والحيّ بكامله تغيّر. وفي مكان البيت الصغير وحديقته، ينتصب بناء كبير من خمسة طوابق وموقف سيارات.

أقول لخالي: لك أنْ تتخيّل العمال الذين حفروا الأرض لإشادة هذا البناء أنَّهم وجدوا الكتب، أتخيل رؤوسهم تتدلَّى فوقها، بماذا فكَّروا؟ ولو أنَّهم دقّقوا النظر في تلك الحفرة، لاستطاعوا أنْ يعثروا فيها أيضاً على دُماي وأحلام أمي.

الانتظار

الوقت متأخر. تقرأ أمي لي كتاباً. لا يسعُني النوم. قراءة متكلّفة، فهي تفعل ذلك بشكلٍ روتيني. لم تعُد موجودة. أرى الطيور التي تحُوم فوق رأسها تتضاءل، وتختفي أحلامها بالتدريج. كأنَّها تطردها واحداً تلو الآخر.

- ماما، أين أبي؟
- إنَّه في بلد آخر.
- وما هو البلد الآخر؟
- يدعى فرنسا.
- فرنسا؟ لكن متى سنذهب إلى هناك؟
- قريباً.
- ومتى هذه القريباً؟
- لا أدري.

لم تعُد الطفلة الصغيرة تطرح الأسئلة. تدرك أنَّ الإجابات ستظلّ مراوِغَة وغير مؤكَّدة.

تنام.

إنَّنا في منزل عمّتي، أخت أبي. الجو متوتر. تريد أمي البقاء في إيران للدراسة وتتردّد في الرحيل، إنَّها تائهة.

- ليس منطقيّاً أن تبقي هنا مع ابنتك.
- لم أقل إنَّني أريد البقاء.
- ماذا إذاً؟ ماذا تريدين أن تفعلي!
- ببساطة قدَّمت التماساً لمتابعة دراستي في الطب.
- لن تتركي أخي لوحده في فرنسا.
- تلقيتُ موافقة على إعادة تسجيلي في الجامعة، إنَّها فرصة خارقة.
- لكن كيف يمكنك أن تكوني أنانية إلى هذه الدرجة؟
- إنَّها حياتي.
- لا، ليست حياتك، لم تعُد حياتك. هنالك زوج ينتظر أسرته. هل تفهمين؟ عليكِ الذهاب إليه.
- كان قرار الرحيل قراره. وليس قراري.
- حسن، إذاً لن تعودي ترين مريم.
- ماذا؟
- ستطلّقين وستصبح الطفلة في حضانتنا، فنحن عائلة أبيها.
- ليس من حقكِ ذلك.
- بلى! الطفل يتبع الأب في هذا البلد.

- أنا أمها.

- وهو أبوها.

- هذا ابتزاز، أنتِ تهدّدينني.

- ستذهبين إلى هناك. هذا واجبك كزوجة وأم.

في السماء، لم يعُد يحلق أيّ سرب طيور، ولا أيّ ريشة. لم تعُد توجد سوى أبراج الصمت المنتصبة كعلامات استفهام كبيرة في عيني الطفلة الصغيرة.

ذات ليل، إنَّها واثقة من ذلك، شاهدت أمَّها في الحديقة، عند جذع الشجرة، تدفن أحلامها، واحداً تلو الآخر، بجانب دُمَاها.

لم تعُد الفتاة ترسم. انتهى بها الأمر إلى تقديم جميع ألعابها وأثاث حجرتها وملابسها وكتبها لأطفال الحي. راحَ مسقط رأسها يفرغ من محتوياته بالتدريج. تركبُ الدراجة في الشارع المقفر لتقتل الوقت. تراقب بقع البنزين الممزوجة بماء المطر. وقوس قزح على إسفلت الطريق. تطارد قطة. تقطف أزهاراً ينتهي بها الحال إلى إلقائها. تنتظر.

لحية سوداء

1986 - طهران - مطار مهرباد

تجلس أم وابنتها في مطار. قاعة انتظار الركاب. تنظر الفتاة الصغيرة حولها. تنتظر. الجو حار. لا تفكر الفتاة الصغيرة إلّا بأبيها. ستلتقيه ثانية. أخيراً.

يتوجّه رجل نحو الأم مباشرة. يرمقها بنظرة قاسية. يشبه أولئك الرجال في السجن الذي احتُجِزَ فيه خالها. اللحية ذاتها، ويقطِّب حاجبيه ويكزّ على أسنانه. يمسك جواز سفر الأم بيديه. لا تفهم. عليها أن تتبعه. توجد مشكلة. تنهض وتمشي بسرعة، والفتاة تهرول خلفها.

ينتابها الذعر. يتلاشى الرجل في الحشد. ويظهر ثانية في طرف رواق. أصبحتا بعيدتين عن صالة الانتظار الآن. تجلسان مقابله في قاعة صغيرة.

تحدّق الفتاة في الرجل بعينين واسعتين. تتأثر بلحيته: كثّة ومجعدة وطويلة وسوداء. إنَّها غابة مظلمة تلتمع في جوفها أسنان صغيرة حين يتكلم. تغطي نصف وجهه وتنتشر من الوجنتين حتى العنق، وصارت متأكّدة أن اللحية ستواصل النمو، وستجتاح أماكن أخرى كالقذال والأذنين والجفنين والجبين. تتخيل وجه رجل يكسوه الشعر كلّه، وتشعر بالخوف.

- لا يمكنكِ ركوب الطائرة. لن تسافري. ترتدين حجابك بشكل سيئ. الشرع الإسلامي صارمٌ بهذا الشأن.

- عفواً؟ لم أفهم.

- ثمة خصلات تخرج من حجابك.

وبسرعة تغرس المرأة بضع خصلات تحت حجابها وتركِّزه على جبينها. يكاد يغطي عينيها الآن. تشدّ من جديد العقدة بعنف. ترتعش يداها.

- أسألكَ العفو، فأنا لم أنتبه إلى تلك الخصلات.

- اخرسي.

- يجب أن ألحق بزوجي.

- قلت لك إنَّك لا تستطيعين صعود الطائرة. سأحتجزك هنا مع ابنتك حتى يقرِّروا مصيرك.

- لكن يجب أن تذهب ابنتي إلى عند أبيها.

- اخرسي.

- أرجوك دعنا نسافر.

- أقول لك اخرسي.

- أريد أن أسافر بالطائرة يا أمي.
- غير ممكن.
- ولماذا غير ممكن؟
- دون جواز سفر، ليس هناك طائرة، ودون طائرة، ليس هناك بابا.

فجأة أفهم كلّ شيء. لن أرى أبي، هكذا بكلّ بساطة. سيمنعني هذا الملتحي الشرير من رؤيته، وسيترتّب عليّ الانتظار أيضاً، الانتظار، كلّ هذه الساعات من دونه، من دون أبي.

وتبدأ الفتاة الصغيرة في البكاء. تبكي وهي تنظر إلى هذا الرجل وتنادي أباها: بابا. تناديه لمساعدتها: بابا، بابا. تريد، أن تجعله يظهر ليخلّصها من اللحية السوداء.

وبالتدريج تتحوّل الدموع الخَجِلَة إلى عويل وبكاء عنيف. تضرب فخذيها وتصرخ باستمرار بابا. ثمة شيء ما يمزّقها. تتشبث بأمها حتى لا تقع عن كرسيّها.

أصبحت الأم تمثالاً. تحدِّق أمامها مباشرة، بنظرة معلَّقة في الفراغ. كأنَّها ميّتة.

لم تعُد الفتاة ترى شيئاً، لا القاعة، ولا الأم. عيناها المخضّلتان بالدموع لا تحدقان إلّا في شيء واحد أمامهما، كأنَّ هذا الشيء ينومهما مغناطيسيّاً: في يدي الرجل، في أطراف أصابعه، في جواز السفر.

لم تعُد تسمع شيئاً. يطلب منها الرجل أن تُسكتها. لا تحرّك

الأم ساكناً؛ تصغي إلى كلّ شهقة من شهقات ابنتها. تعرف أنَّ هذا هو السلاح الوحيد المتبقّي لديهما، شهقات ابنتها الجنونية.

- أقول لك أَخْرِسيها.

لن تُسكِتُها وهو يعرف ذلك. وبالتدريج راحت نظرة الرجل تتغير. وأخذ حياءٌ طفيف يتبدى على وجهه؛ بدأت التقاطيع الصارمة من قبل تتراخى. يسمع هذه الفتاة وتتغلغل في بشرته هذه الكلمة، بابا، التي تصرخ بها، وتندسّ فيه وتطفو على سطح عينيه وتفتحهما فجأة.

- عندي ابنة أيضاً. عمرها خمس سنوات. كم عمرها؟

- عمّا قريب تبلغ السادسة.

- ومنذ متى لم ترَ أبوها؟

- سبعة أشهر.

- لا يحقّ لي أن أفعل هذا. انصرِفا من هنا. ستصعدان إلى الطائرة بعد نصف ساعة.

يقذف جواز السفر إلينا فتلتقطه أمي وهو طائر في الهواء.

نركض، ندفع الناس، نصدم الحقائب، نقفز فوق الحواجز. نرقص. نرقص لنجاتنا من الموت. إنَّني متشبِّثة بيدك. تمشين بسرعة كبيرة، لا تكاد قدماي تلامسان الأرض. أطير معك.

ينزلق وشاح أمّي عن شعرها الأسود، فتُعيد تركيزه، يسقط من جديد، وتتطاير خصلات من شعرها. يشبه رُفلُ ثوبها الطويل

والعريض يدان ترتفعان وتلوحان في الهواء، تصفقان لسفرنا، لسباقنا الجنوني نحو الطائرة، نحو الحريَّة.

ألمحكَ عبر الباب الزجاجي الكبير الذي يفصل المسافرين عن مستقبليهم. أرغب بالركض والقفز، وينفد صبري. أترك أمّي وأثب بين ذراعيك وألتصق بأحضانك، وأبقى هكذا لساعات متشبّثة بك. أقمتُ في قلعة ستحميني من كلّ بؤس العالم. هنا، لم يعُد بمقدور أيّ شيء أن يؤذيني.

كان يا ما كان، كانت يدا الأب

يدان مجعّدتان ومسبوكتان من المعدن.

في بادئ الأمر، لمسَت يداه الأوراق النقدية: كان والدي مصرفياً.

وهو جالس خلف مكتب، يرتدي بزّة زرقاء بَحرية ذات أكمام طويلة وربطة عنق وينتعل حذاءً مطلياً بالبرنيق الأسود يصدر صريراً مع كلّ خطوة، كان يفتح حسابات أو يملأها أو يفرغها، وابتسامة تجاريّة تعلو شفتيه. كان يشغل منصباً مرموقاً. «يجب أن تحافظ عليه» كانت تردِّد أخته الكبرى المتسلطة التي أدعوها العمة عزيز. كانت هذه الأخت الكبرى التي بقيت عذراء طيلة حياتها تردِّد على مسامع جميع الناس: «مصرف ملي، يعمل أخي في المصرف الوطني، أجل، أجل، يشغل منصباً مرموقاً، الحمد لله». كان يذهب كل صباح إلى المكتب وكانت يداه تتداولان الدفاتر والأوراق والملفات المملوءة بالأرقام المجردة التي لم يكن يخطئ فيها البتة.

وذات يوم، دسَّت يداه خلسة منشورات في أدراج زملائه. كان

يصلُ في الصباح الباكر إلى المصرف، قبل الجميع. يُخرج من حقيبته الصغيرة رزمة منشورات مكتوبة بحروف سوداء كبيرة. يُلقي نظرة سريعة على العناوين البارزة: «الموت للدكتاتور». «الخميني قاتل»، «بعد الشاه، الخميني: أين تمضي ثورتنا؟» يضع منشوراً في دُرج كلّ مكتب: كان أبي يناضل.

كانت تسري رعدة في أوصاله كلما نجح في دسّ منشور. ويعتريه شعور بالفخر أيضاً: فهو يجازف، إذاً شجاع. ثم ذات يوم، يدُ المدير هي التي وضعت منشوراً أمام عيني أبي. رفع رأسه ببطء ورآه واقفاً، بهيئة جديَّة، متأهباً لفصله على الفور. قرأ المدير المنشور بهدوء؛ ثم أضاف: «أنت مطرود».

كادت عمة عزيز تُصاب بالإغماء. راحت تضرب بيديها الضخمتين والمنتفختين والحمراوين بسبب الأعمال المنزليَّة على فخذيها ورأسها تعبيراً عن حزنها الشديد كما تفعل بعض النساء الشرقيات الثكلى أمام ضريح فقيد قريب.

لم يعبأ أبي بنواح عمّتي، كان ذهنه مشغولاً في مكان آخر. يجب أن ينطلق من جديد، وفي أعماقه كان مسروراً لأنَّه لن يعود إلى ارتداء ربطة العنق التي تعيق تنفسه.

لم تبقَ يداه دون عمل لفترة طويلة. سرعان ما بحثتا عن مواد أخرى لمعالجتها لأن عليه رغم كلّ شيء أن يعيل أسرته. كان عمري آنذاك عامين ولم تكن أمي تعمل، وكانت قد طُردت من كليَّة الطب في الجامعة بسبب مشاركتها في المظاهرات.

عندئذٍ دخل والدي إلى ميدان المعادن، أو بالأصح الألمنيوم: كان يصنع الإطارات.

انغمس في هذا «العمل» مع خالي. وأصبح المرآب وجزء من الحديقة ورشتهما. وبالطبع كان عملاً غير مرخّص مثل جميع المهن التي مارسها لاحقاً. بضعة إطاراتِ صورٍ بيعت، كثيرٌ منها أُهديت للجيران والعائلة والأصدقاء، وفي نهاية المطاف، القليل جداً من المال جُنيَ.

كان يجب ترك هذا البلد بكل الأحوال.

في فرنسا، طَرَّقَت اليدان في البداية الحديد، وتلطّختْ بطلاء السيارات ذي الرائحة القويَّة: كان أبي يعمل في حدادة ودهان السيارات.

كان يسير كل يوم مسافة ثلاث ساعات بالسيارة ليذهب إلى مرآب يملكه إيراني من أصل تركي وكان يصادف دوماً تلك الاختناقات المروريَّة الشيطانية. في هذه الفترة بدأت عصبيَّته المفرطة خلف مقود السيارة. وبصراحة أظنّ أنّ تلك الاختناقات المروريَّة آذته إلى الأبد وأن إفراطه في السرعة والنقاط التي خسرها في رخصة القيادة نجموا عن ذلك.

وذات يوم، أُغْلِقَ المرآب. ووجد نفسه من جديد عاطلاً عن العمل لكنَّه هذه المرّة كان معيلاً لطفلين. كان أخي قد وُلد للتو. ولم تزل أمي دون عمل.

كان يجب على اليدين القلقتين أن تجدا عملاً آخر بسرعة. كان ذلك عندئذٍ طريق المهن الطويل، وأكاد أقول تمجيده: خشب،

بيتون، آجر، إسمنت، حصى، طلاء الأرضيَّات، طلاء الجدران، قرميد، دهان، مسامير، براغي، ملازم، أرضيات خشبيَّة، موكيت، بلاط؛ أصبح والدي عاملاً في البناء ومسبِّعَ كارات مشهور. كان يصلح كلّ أشيائي المكسورة، من الدراجة الهوائية إلى الحاسوب مروراً بالمجوهرات. كان بالنسبة لي ماكجيفر(*).

رأيته دوماً منكباً على شيء ما، مقرفصاً أو جالساً إلى طاولة في كوخ صغير جهّزه في ركن الحديقة. منزل صغير جداً يكدّس فيه كلّ أدوات عمله، وأشياءه المستعملة، إنَّه «حديقته السِّرية» ومكان عزلته. كان يفوح برائحة التبغ الباردة والزيت والغبار وأحياناً برائحة شاي غامضة. كان قد علَّق على الجدران عدداً كبيراً من الأدوات الصدئة تماماً التي تنتمي إلى مرحلة ما قبل التاريخ، اشتراها من متجر الأدوات المستعملة. راح يعرضها على زواره وهو يتباهى بهذا الشراء. كان يقول لنا عبر هذه الأدوات: انظروا، إنَّ مهاراتي الحرفيَّة تعود إلى أعماق العصور القديمة، فجدي أورَثني في غابر الزمان خبرته وذات يوم وجدتُ هذه الأدوات على بسطة بائع أشياء قديمة.

ثم بدأت أعمال يديه تتناقص، أصبحتا متعبتين، مجعّدتين ومتشققتين في بعض المواضع. وكانتا تحملان آثار جروح كثيرة أحدَثَها المعدن والأدوات. أصبحت البشرة قاسية مثل الجلد. عندئذٍ بحثتا بهدوء عن الراحة، وعن السكينة اليوميَّة. وحفرتا في الزمن

(*) شخصيّة في مسلسل مغامرات أميركي مشهور بصنع أدوات علميّة معقدة.

بحثاً عن هويَّة. بدأتا تلامسان الحبر والأقلام وريشة الرسام والورق. راح يخطّ أسطراً ومنحنيات وخطوطاً صارمة وحلقات، واليدان ترقصان الفالس مع شعر الخيام أو الرومي أو حافظ الشيرازي على مسرح الورق الأبيض: صار أبي يمارس فن الخط.

وبشكل موازٍ، كأنّ بديهة خفيَّة تدفعهما، أخذت اليدان أيضاً تجسّان عجينة سوداء ولزجة لتصنعا منها كريات صغيرة تُحرق فوق موقد: صار يدخن الأفيون. كان قد صنع بنفسه موقده. عبارة عن قارورة بلاستيك صغيرة مملوءة حتى منتصفها بالماء وتتوسّطها فتحة يضع فيها خرطوماً. كان يلصق الأفيون على طرف سلك معدني قَصَّه بدقّه، ويقرِّبه من ثقب آخر أحدَثه في سدادة القارورة ويسخِّن الأفيون الذي يستنشقه بواسطة الخرطوم. نوع من نرجيلة الأفيون الحِرَفيّة. كنت أعرف أنّه يدخن من صوت السلك المعدني الذي يضرب طرف الموقد ومن صوت فقاعات الماء حين يستنشق نفساً.

مثل والده. كان يكرِّر حركاته ذاتها. كان يبدو أنَّه يلتقي ثانية ذلك الأب الميت حين كان في عمر الحادية عشرة ويتجاذب أطراف الحديث معه وسط دخان الأفيون. وكانت اليدان السوداوان بسبب الحبر الصيني تكسران قطع السكّر لتخفيف مرارة الشاي الأسود. وفي هذا الكوخ المشهور، الذي تتجاور فيه الأدوات القديمة لحرفيٍّ عجوز مجهول مع أدوات جديدة لامعة مشتراة من الكاستوراما، شاهدتُ ظهور لوحات الخط. كانت تمجِّد الشعر الفارسي القديم وراحت تتكاثر بمرور الوقت، وتغطي الجدران الصفراء بسبب دخان التبغ والأفيون. في تلك الفسحة الصغيرة التي لا تكاد تتّسع لثلاثة أشخاص، تتكدَّسْ كيفما اتفق كسراتٌ من حياة أبي ومسيرته. على

طاولة عمله يتجاور مفكّ البراغي مع ريشة الخطاط، وكلاهما يعبران عنه أفضل من أيّ اعتراف يُدلي به.

أحياناً، كانت يدا الأب تحرّكان أيضاً فأرة الحاسوب حتى الفجر غالباً، وتتجولان في المواقع الإلكترونية الإيرانية، وتنقران على روابط تفضي إلى روابط أخرى، فتستغرق اليدان وتتُوهان في متاهة وسائل الإعلام الغربية التي تتناول الاعتقالات وأحكام الإعدام. كانت صور الشباب المشنوقين على الرافعات في شوارع طهران تشلُّ يديه لبرهة وبقلب منقبض، يسحب نفساً عميقاً من لفافة التبغ ويتنهّد، ويتمتم ببضع كلمات حزينة مبهمة، ويواصل تسكّعه الحالم في دوائر الخلفية المتراكبة، متنقلاً من موقع إلى آخر. قلتُ لك مراراً وتكراراً أن تتوقف عن هذا، ألّا تعود وتنظر إلى هذه الصور الصادمة والمرعبة. فأجبتني بأنَّها الشيء الوحيد الذي بقيَ لك، الشيء الوحيد الذي بقيَ من نضالك: فهي تُخبرك وتُبقيك على اطّلاع، وتُخبر الآخرين.

كنتَ تنظر إلى تلك الصور ومقاطع الفيديو وتعرف في قرارة نفسك أنَّك أصبحت فرنسياً من أصول أجنبية كالآخرين، وأنَّك لم تعد لاجئاً سياسيّاً منذ أن حصلتَ على الجنسيَّة الفرنسيَّة، لكنَّك لم تصبح فرنسياً بحق أيضاً وصار لنضالك القديم الآن طعمَ المرارة والغرور.

بعد ذلك، قَلَّبَتْ يداكَ أرض البيت الريفي الذي اشتريته على بُعد ساعتين من باريس. كنت تقول إنَّ ذلك هو حلمك، حلمك الكبير الذي سعيتَ إليه منذ عشرين عاماً. كنتَ تأوي إليه في عطلة نهاية الأسبوع وأحياناً تبقى فيه أسبوعاً بأكمله، وكنتَ تريد أن تنهي أيامك فيه وأن تقضي فترة تقاعدك في ذلك الحقل. حفرتْ يداك الأرض، حرثتها، زرعتها بحبوب القمح وجاهدتَ لرعايتها دون أسمدة كيميائية ودون مبيدات حشريَّة. زَرَعَتْها بنباتات «طبيعية». قطفتْ منها أصابعك القويّة ذات البشرة القاسية الكوسا والبطاطا والخيار ووضعتهم بزهوّ على طاولة المطبخ أمام أمي.

أتاح لك الريف أن تُعيد ارتباطك بطفولتك التي قضيتها في البساتين شمال طهران مع أبناء عمك، وكنت تشاركهم قطاف الفاكهة في كلّ صيف. وقلّما رأيتكَ مرتاحاً وسعيداً إلّا في ذلك الحقل الذي كنتَ تعمل فيه حتى حلول الغسق.

التاريخ يُعيد نفسه

قرَّر والدي ذات يوم أن يذهب إلى السفارة الإيرانية في باريس لطلبِ جواز سفر إيراني: يُريد أن يعود إلى البلد لبضعة أيام. كان يريد رؤية أهله والتسكّع في الشوارع واستعادة روائح وضجيج وأضواء طهران.

يونيو 2009 - طهران - مظاهرات ضد الانتخابات

«سرقوا ثورتنا
سرقوا ديمقراطيتنا
سرقوا صوتنا».

ها هو في الشارع، قرب ساحة هافتي تير الكبيرة. لا يمشي وإنَّما يراقب. يرى آلاف الإيرانيين يتقاطرون أمامه وشرائط خضراء معقودة حول سواعدهم. يريد الانضمام إليهم. يرى الأفواه تهتف بشعارات: «الموت للديكتاتور». يسمع إيقاع خطواتهم فيخفق قلبه.

يودّ الانضمام إليهم. يرى رجالاً على دراجات نارية، يحملون سواطير في أيديهم ويخترقون الحشد ويضربون كلّ مَن يتحرّك. يرى أجساداً تسقط. يرى رجالاً ونساء يركضون ليحموا أنفسهم. تتشنّج يداه ويثور قلبه. يرغب بالانضمام إليهم. يرى الدخان والدم، وينبعث كلّ ماضيه. يرى نفسه في التاسعة والعشرين من عمره، يعيش في فيينا ويدرس السينما، فترك كلّ شيء وجاء ليتظاهر في هذه الشوارع ذاتها، ويصرخ بالشعارات ذاتها، ويُسعف الجرحى ذاتهم. ويرغب بالانضمام إليهم كما فعلَ قبل ثلاثين عاماً. لكنَّه الآن في التاسعة والخمسين من عمره ولم يعُد يستطيع الانضمام إليهم. يبقى ساكناً وحائراً على حافة الرصيف يراقب بحزن، ويتساءل عمّا تغيَّر فيه. حَوله، لم يتغير شيء. التاريخ يُعيد نفسه لكنَّ شيئاً ما تغيَّر فيه: لقد هرم، وصار يشعر بالخوف، ولم يعُد يريد الموت في سبيل الأفكار. يفضِّل هذا الرصيف لأنَّ الحياة على هذا الرصيف أكثر أماناً. لذلك ينظر بعينيه المتورِّمتين من الذعر والعجز ليشهد، فهذا كلّ ما يمكنه القيام به.

في كل ليلة، طيلة شهر يونيو عام 2009 كانت تُسمع أصوات سكان طهران المتألمة وهي تصرخ: «الله أكبر». كان السكان يصعدون إلى أسطح منازلهم ويدعون الله. فقط بهاتين الكلمتين: الله أكبر. كان أبي يستيقظ ويعتقد أن هذا أذان المؤذن. ثم يدرك أنَّه صوت السكان الذين يلتمسون العدالة الإلهية، ويدعون الله أن يُنزل انتقامه ليُعاقب به أولئك الدجالين الذين قتلوا المتظاهرين الأبرياء.

وحين كان يَسمع هذه الصيحات، كان النوم يجافيه. كان يودّ أيضاً أن يضمّ صوته إلى أصواتهم، لكن كان من العسير عليه أن يتلفَّظ هاتين الكلمتين. فهو في حرب مع الإسلام منذ زمن طويل، ومجرّد ذكر اسم الله يحرِّك فيه الحقد والبغضاء.

ثم عُدْتَ إلى فرنسا، واستأنفتَ العمل، فالعطلة الصيفية انتهت بالنسبة لك. جئتُ أنا وأمي لاستقبالك في مطار أورلي.

نظراتك شاردة، وثمة جراح قديمة تستيقظ في جسدك. أنتَ تجعلني أفكِّر بطفل صغير يحتاج لمن يواسيه. نحتضنكَ نحن الاثنتان بعاطفة أموميَّة فتنفجر منتحباً. تبكي كلّ ما رَأَيْتَهُ هناك. يجب أن يذوب كلّ هذا ويخرج منك ومنّا، نمسح عينيك بصمت.

منذ شهر لم تكَد تتكلم. لم تعُد تتنقّل بين المواقع الإلكترونية الإيرانية خلال الليل. أغلقتَ بابَ متاهةِ وسائلِ الاتصال الجهنمية. لم تعُد يداك تفعلان شيئاً. تظلّان ساكنتين على ركبتيك: تشعران أنَّهما آثمتان وتنتظران الحكم في محكمة رأسك. إنَّك تحاكم نفسك بقسوة. في ساحة محكمتك الداخلية، تتّهم نفسك بأنّك جبان وعجوز لكنَّ هذا ليس جبناً، إنَّه ببساطة رغبة بالحياة.

2014 - الهند - كيرالا

آخذُ دروس يوغا على سطح منزل. أستاذي صربي لم يطأ أرض وطنه منذ خمسة عشر عاماً.

«هل أنتِ إيرانية؟ إنَّها أول مرَّة أصادف فيها إيرانية في الهند. كما تعرفين ذهبتُ إلى الهند منذ زمن طويل. بعد الثورة ببضعة أشهر تقريباً، كان ذلك في سبتمبر عام 1979 على ما أذكر. عبرتُ أوروبا وتركيا مشياً على الأقدام. نزلتُ في ذلك البلد نصف الميت، إذ لم تعُد قدماي تقويان على المشي وتشقَّقتا، ونفدت نقودي وخشيتُ أيضاً من الأحداث التي تعصف فيه. باختصار، لا أعرف حقاً ماذا كنتُ أفعل فيه ولا سبب وجودي هناك.

كانت أمسيتي الأولى في طهران ضبابية. كلّ شيء غامض ومُحاط بالسحب، وكنتُ أمشي كالسائر في نومه في الشوارع الصاخبة. رحتُ أراقبُ لافتات المحال التجارية، وأحاول التقاط نظرة أو ابتسامة أو لمسة من هنا وهناك، وراحت النسوة يعبُرنَ بجانبي ويرمُقْنَني بنظرات عابرة. لا أعتقد أنني كنت أبدو جميلاً. وثمة في الجو رائحة مازوت ودخان وخشب محروق. جاء رجلٌ واقترب مني، كان يتحدث الإنكليزية. دعاني إلى منزله، كان ناشطاً يحاول الفرار من بلده. كان أحد إخوته في السجن. تحدثنا في السياسة والنضال والثورة والدين. على حائط الصالون عَلَّقَ صورة لتشي غيفارا. شعرتُ برغبة في البكاء عند رؤية تلك الصورة دون أن أعرف السبب. أحسستُ بنكبة الثورة الإيرانية. شممتُ في تلك الغرفة رائحة حلم مهشَّم وحطام طاقة مجنونة.

نهض وعاد مع مشرب الأفيون وموقد الفحم. سألني إن كنتُ أريد التدخين معه. وأردف ضاحكاً «لننسى».

دخّنا. غاص جسدي في الفراش ورأسي في الوسادة المطرَّزة، وتاهت عيناي في فسيفساء الستارة وشيئاً فشيئاً نمتُ».

كيف يمكن أن تكوني فارسيّة؟

طهران - أحاديث مع بنات العم

2013 - «حفلة ميامي»

أُقيمت سهرة في فيلا فاخرة في حي نيافاران شمال طهران.

سميت السهرة «حفلة ميامي». الفكرة: ارتداء البيكيني للفتيات وسروال السباحة للفتيان، وهم جميعاً حول حوض سباحة كبير، يشربون الكوكتيل أو الشمبانيا، يدخنون الأعشاب، يرقصون ويقفزون في حوض السباحة. يا لها من ميامي!

كان ذلك مروعاً، ونادراً ما استمتعتُ إلى هذا الحدّ.

بعد ثلاثة أسابيع، تَحدَدَّتْ هويَّة كلّ مدعو إلى «حفلة ميامي» بواسطة الصور على الفيسبوك، وجرى اعتقالهم إمّا في منازلهم أو مدارسهم. ولم يفلت أحد منهم.

بعد الظهر، قُرِعَ جرس منزل ابنة عمي. ليست موجودة، تتسكع مع رفيقاتها في أحد المراكز التجاريَّة.

تفتح عمتي الباب، فترى رجلين وامرأة:

- أنتِ والدة زهرة زاهدي؟

- أجل.

- أين ابنتك؟

- ما الأمر؟

- سلوك فاحش، اعتداء على الأخلاق العامة، انتهاك حرمة الشريعة الإسلاميَّة.

- عمّ تتكلمون؟

- سهرة «حفلة ميامي» في نيافاران. لدينا الصور.

زجاجات الويسكي خاصة زوجي، سيفتشون المنزل، سيجدونها. أين هي؟ في أثاث الصالون، وهناك واحدة في غرفة النوم.

أغلقت عمتي الباب فجأة. هرعت إلى الصالون والغرفة، أخذت الزجاجات وفرَّغتها في المرحاض، وسكبت الماء ورشت عطراً، وقذفت الزجاجات الفارغة من النافذة فسقطت على مرج عشبي في الفناء الداخلي مُحدِثَة ضجة مخنوقة.

وفي هذه الأثناء، راح الآخرون يطرقون الباب كمجانين هائجين، وهم يتوعَّدونها بأسوأ انتقام إنْ لم تفتح الباب على الفور.

- قالت وهي تفتح الباب؛ وقد تشعَّث شعرها وكاد قلبها يتوقف: اعذروني.

- ماذا تخفين؟

- لا شيء. يمكنكم أن تفتّشوا.

بقيت ابنة عمي في السجن ثلاثة أيام ونجح عمّي في إطلاق سراحها بعد أن اضطر إلى تقديم مبلغ كبير من المال. لم تكن تبلغ من العمر سوى ستة عشر عاماً.

2009 - زوجة ثانية

تزوّجت ابنة عمي سيمين قبل أربع سنوات. لديها ابن عمره ثلاث سنوات. درستْ حتى الصف الثالث الثانوي، ولا تعمل.

- استيقظَ زوجي وقذفَ هذه الجملة في وجهي: «أريد أن أتزوج امرأة ثانية».

- ماذا؟ تريد أن تتزوج امرأة أخرى؟ هل تمزح؟

- لا، أبداً، أنا في غاية الجدية. هذا حقي، يمكنني أن أتزوج حتى الأربع نساء. أمور المصنع تسير على خير ما يرام، ويمكنني أن أشتري منزلاً ثانياً لزوجة ثانية، إذاً أنا أسير وفق الشرع الإسلامي.

- وهل التقيتَ زوجتك الثانية؟

- أجل، ولهذا أحدِّثك في الأمر.

- لكنَّك قذر.

- لنقل إنَّكِ بدأتِ تضجرينني، ثم إنَّه لديكِ منزل وابن ومطبخ جميل، لا ينقصكِ شيء البتة. لذلك تَفَهَّمِي الأمر.

- أتفهَّم؟ أتفهم ماذا؟ أن تبصق في وجهي؟ إن فعلتَ وتزوّجت، سأطلب الطلاق. أقسم لك على ذلك.

- إذاً أخفِضي صوتك أولاً وتوقفي عن تهديداتك. تريدين الطلاق، ليكُن، لن أتمسَّك بكِ.

- يا لك من أبله، صبيّ غبي قذر، أعطاكَ والدك دوماً كل شيء وها هو السيد يضجر اليوم من زوجته، ويريد الزواج بأخرى، مثل الألعاب التي كان يطلبها حين كان صبياً، ابن عاهرة، اخرج من هذا المنزل وإلّا سأرحل أنا في الحال.

صفعني وسحبني من شعري حتى غرفة النوم، وضربني على وجهي أيضاً وقال لي وهو يرفع سبابته: «احفظي لسانك، أنا مَن يقرِّر في هذا المنزل، وأنتِ لستِ شيئاً من دوني، فأنت لست إلّا امرأة».

تطلّقنا. وخسرتُ حضانة ابني. عاش معهما. ورحتُ أتخيّل ابني الصغير في الليل راقداً في سريرهما، بين جسد الزوجة الثانية وجسد زوجي السابق. فأشعر بالغثيان كلما فكرتُ في الأمر.

2003 - «سان فرنسيسكو أم لوس أنجلوس؟»

إنّني بصحبة ابنة عمي شارناز. إنّها متمرّدة وتحب أن تلعب بنار الممنوع.

احتفلتْ منذ فترة وجيزة ببلوغها سن التاسعة عشرة. نحن في سيارتها. هي تدخّن وأنا ألاحظ أحمر الشفاه على لفافة التبغ. كانت تضع نظارة سوداء كبيرة من ماركة غوتشي آخر صيحة في عالم النظارات. وترتدي وشاحاً برتقالياً فاقعاً لا يكاد يغطي ربع شعرها.

- ترين هذا الشارع، إنّه «جوردان ستريت»، هكذا يسميه الشباب.

- هنالك الكثير من الشباب في هذا الشارع. ماذا يفعلون هنا؟

- يبحثون عن غانيات.

- لكنَّهم لا يتحدثون فيما بينهم. فكيف يبحثون عن غانيات؟

- استيقظي يا مريم، فنحن لسنا في باريس (تلفُظ كلمة «باريس» مقلِّدة النبرة الفرنسية). نحن في طهران، مدينة الرذيلة والجريمة (تقول ذلك بصوت سوقي مبحوح).

أبدأ بالضحك.

- اشرحي لي إذاً الحيلة المتَّبعة للبحث عن غانية في مدينة الرذيلة والجريمة.

- الأمر في غاية البساطة، كما ترين، ثورتنا هي الهاتف المحمول والإنترنت. انتظري، سأركن سيارتي للحظة وستفهمين كلّ شيء.

انظري هناك، أنتِ ترين الفتاة الشابة ذات الوشاح الأزرق الفاتح، إنَّها تمشي في الطريق، وحتى الآن كلّ شيء طبيعي. انظري إليها، أومأتْ إلى شاب. هل رأيتِ إيماءة رأسها أم لا؟

- لا، لم أرَ شيئاً.

- تباً يا مريم، انتبهي، إنَّني أريكِ شيئاً لن تريه في أيّ مكان آخر. حسناً، سأتابع. أومأتْ للشاب، أشارتْ له بحركة من رأسها. الشاب يتبع الفتاة. انظري إليه، يفعلُ ذلك بمهارة شبه حرفيَّة. تتوقف أمام واجهة متجر وتتظاهر أنَّها تتفرج. يتوقف الشاب أيضاً أمام الواجهة ذاتها. هل ترينهما؟ افتحي عينيك جيداً الآن.

- دسَّت شيئاً في يده بسرعة فائقة.

- مرحى، هذا صحيح، لديكِ عين فارسيَّة. لقد أعطته رقمها

وغادرت. سيتصل بها الشاب وسيذهبان إما إلى سان فرنسيسكو أو إلى لوس أنجلوس.

- ماذا؟

تنفجر ضاحكة.

- سيسأل الشاب الفتاة هل تريد الذهاب إلى سان فرنسيسكو أم إلى لوس أنجلوس. إنَّها شيفرة. سان فرنسيسكو تعني: تبادل القبلات، ملامسات، القيام بمداعبات، لكن لا أكثر. أما لوس أنجلوس، انتبهي، هناك القفزة الكبيرة، يصلان إلى النهاية: يتضاجعان.

- هل يتصرف كلّ شباب طهران على هذا النحو؟

- لا، ثمة الكثير من التنويعات، فلدينا مخيِّلة خصبة كما تعرفين.

2003 - الوشاح الأحمر

أذهب إلى بيت عمتي أم عزيز. أنتظر لأجتاز الشارع. فجأة أرى مقابلي سيارة شرطة تتوقّف ويعلو صرير عجلاتها. تنزل منها امرأتان منقّبتان بالكامل وتلقيان القبض على فتاة شابة تضع وشاحاً أحمر على رأسها وتنتعل خفاً قماشياً يكشف عن أظافر مطليَّة بالأرجواني. الفتاة تقاوم، فتضربها المرأتان على وجهها، تصرخ وتستغيث، إحداهما تصفعها والأخرى تسحبها من شعرها.

سأعلم فيما بعد أنَّ الأمر يتعلق «بمغاوير فاطمة»: شرطة الآداب العامة. مغاوير فاطمة هنَّ نساء يلاحقن اللواتي يضعنَ

الحجاب بشكل سيئ أو يرتدين الملابس بطريقة مثيرة. و«الطريقة المثيرة» تعني أن الغاية هي انتهاك حرمة الروح الصافية والطاهرة للرجل الذي يجاهد لئلّا تغريه تلك المخلوقات الشيطانيَّة مع أنَّ عقله مستقرّ في مؤخرة وفرج النساء إلى حدّ أن أيّ شعرة أنثوية تجعله يضلّ سواء السبيل.

مغاوير فاطمة هؤلاء، يضعن الفتاة في السيارة بالقوة ويذهبنَ بها. لم يتحرّك شيء في الشارع خلال تلك الثواني. ثم يستأنف المارة والسيارات نشاطهم اليومي المعتاد كأنَّ شيئاً لم يكن.

أتسمّر في مكاني، وبعينين جاحظتين، أحدِّق في نقطة هناك، في مكان كانت توجد فيه منذ ثانيتين فتاة شابة تضع وشاحاً أحمر على رأسها وأظافرها مطلية بعناية باللون الأرجواني.

2009 - مديرة عامة تنفيذية

- من النادر في هذا البلد أن تدير امرأة رجالاً. أنا أدير أكثر من 400 رجل.

- هل هذه شركتك؟

- أجل، ورثتها عن أبي. أراد أن يوصي بها لي، لكنَّه كان يشعر بالامتعاض. حسناً، كنتُ في الوقت ذاته ابنته الوحيدة، ولو أنَّه رزق بابن، لأوصى بها لابنه.

- أليس من الصعب أن تقوم امرأة بمهمة مديرة تنفيذيَّة في إيران؟

- صعب وغير صعب. أظن أنَّه ليس أصعب من الأماكن الأخرى. أريد أن أقول إنَّه كان صعباً أيضاً في أوروبا على المديرات

التنفيذيات أن يُدرنَ أعمالهنَّ وحياتهنَّ الشخصية وحياة أسرهنَّ.

- هذا يشمل كلّ النساء اللاتي لديهنَّ حياة أسريَّة وعمل. هل أنتِ متزوجة؟

- لا، لم يرغب أيّ رجل بالزواج مني. إنَّني أخيفهم.

- هل أنتِ جادة؟

- أجل. انظري إلي. عمري ثلاثة وثلاثون عاماً، وورثت ثروة محترمة، ولستُ قبيحة وتخرَّجت من أفضل جامعة في هذا البلد. حصلتُ أيضاً على ماجستير في إدارة الأعمال من لندن. أعزف بمهارة على آلتي القانون والبيانو وأجيد فن الطبخ. لكنَّني بالنسبة إلى الرجال الإيرانيين منبوذة و«لا أعاشَر».

- أنتِ تُفقدينهم صوابهم.

- أجل. يهربون مني لأنَّ لديّ سلطة، مالاً وثقافة. لا يميل الرجال هنا إلى هذا الصنف من النساء. يشعرون بالذلّ. لذلك حُكِمَ عليّ أن أبقى عزباء.

2003 - المسابقة

إنَّني مع ابن عمي في سيارته. نذهب إلى حيّ جنوب طهران لإصلاح سيارته في ورشة «رضا بك جشم»، «رضا ذو العين الواحدة»، صديقه صاحب المرآب الذي لم يعُد لديه إلّا عين واحدة إثر مشاجرة أدّت إلى نتائج وخيمة.

يتوقف شرطيان على دراجة ناريَّة ويطلبان منّا أن نركن سيارتنا جانباً. يسألاننا عن طبيعة علاقتنا. يُجيب ابن عمي أنَّنا من العائلة

ذاتها، وأنَّ أباه هو عمي وأنَّ أمي هي خالته. يأخذان كلّ واحد منا على انفراد ويطرحان علينا الأسئلة حول عائلتنا.

- اسم الأب والأم.
- عمر الأب ومهنته.
- عمر الأم ومهنتها.
- كلّ الأعمام والخالات، واسم أزواجهم وزوجاتهم وأبنائهم.
- الأخوة والأخوات، الاسم والعمر.
- عنوان منزل الجدين.
- عمر الجَدّين.

ثم يقارنان إجاباتنا ليريا إن كانت متطابقة.

بعد ذلك يطلبان منّا أن نتصل، بعد تشغيل مضخّم الصوت، أنا بعمي، والده، وهو بأمي، خالته.

يقول ابن عمي إنّ خالته تعيش في فرنسا. فيجيب الشرطي إن ذلك لا يشكّل أيَّة مشكلة، وأنَّ لديها هاتف، ويمكن الاتصال بها إذاً.

ننفذ الأمر. نتبادل بعض الترهات معهما. وننهي الاتصال.

يدعاننا وشأننا.

أشعر بالإرهاق من الأشياء السخيفة. ولم أعُد أعرف إنْ كان يجب عليَّ أن أخاف أم أضحك أم أبكي أم أصرخ أم أشنق نفسي.

- ستعودين إلى فرنسا وستحكين عن هذا لكلّ الناس. إنَّني أشعر بالخجل. أرجوك لا تخبري أحداً بما حدث.

إنّني في حانة أنيقة للمغتربين. قدّمني بعض الأصدقاء إلى رجل في الخمسينيات من عمره. حين علم بأنّني إيرانية، سارع إلى رواية حكايته الفارسيّة على مسامعي.

«عملتُ في إيران. اشتغلتُ لصالح شركة نفط. أمضيت أسبوعاً في طهران كما تعرفين، لم أرَ شيئاً يُذكر من معالم المدينة ولا سكانها، كانت رحلة عمل، لكن هنالك مشهد لا يفارق مخيلتي. كنّا في سيارة، نتجه نحو مطعم في شمال المدينة، في الأحياء الراقية. وعند الإشارة الحمراء، تتوقف سيارة بورش سوداء رائعة بجانبنا. من نافذتها المفتوحة أرى امرأة خارقة الجمال، شفتاها بلون أحمر قرمزي وخط من الكحل مرسوم بمهارة حول عينيها. في تلك اللحظة ينزلق وشاحها الأبيض عن شعرها، كاشفاً عن خصلة سوداء كالفحم. وبحركة بطيئة وشهوانية، تُعيد الوشاح إلى رأسها، وتلتفتُ بوجهها نحونا وترمقنا بنظرة جذابة ولعوب، وتمطّ شفتيها الحمراوين ببطء وتترك ابتسامتها تكشف عن أسنان بيضاء ناصعة. كانت تلك الابتسامة تشبه وعداً مذهلاً لألفِ متعة في المستقبل. أصبحت إشارة المرور خضراء فانطلقَت بيُسر وابتعدت عنا.

كنت مذهولاً. وبقيت هكذا، فاغر الفم. أيّ تناقضٍ في هذا البلد!».

لبيكَ لبيكَ، الخيام بين يديك!

السحر الشرقي. . . أنتِ ترين لوحات الفنان دولاكروا تلك، هؤلاء النساء الشهوانيات المستلقيات على الأرائك، هذه هي الصورة التي أحملها عن النساء الإيرانيات.

حين دخلتِ أول مرة إلى قاعة الأساتذة، فكّرتُ على الفور بنساء دولاكروا. شعرك الكثيف المجعّد، حركاتك، أسلوبك الهادئ في الكلام، عيناك السوداوان، كنتُ أراك مسترخية بين وسائد مطرزة بالذهب. إنَّه لأمر مدهش أن تكوني فارسيَّة!

أجل إنَّه أمر مدهش، أنت محق. الثورة، اثنان من أعمامي في السجن، المنشورات في حفاضاتي، السفر في اللحظة الأخيرة، المنفى، أفيون والدي. أعي كلّ ذلك، وغالباً ما لعبتُ دور الروائية. في السهرات الباريسية الثقافيَّة البرجوازيَّة أو عندما ألتقي رجلاً لأول مرّة وذلك بهدف انتزاع الإعجاب منه، ولكن أيضاً أمام مسافرين اجتازوا إيران على طريق الحرير وأمام مغتربين عملوا فيها. السائد هو أنّ الناس سمعوا أشياء عن إيران من وسائل الإعلام والكتب

والأفلام. كلّ هذا يصبح بعيداً عن الحقيقة نوعاً ما، وغير واقعي، ما داموا الآن يواجهون شيئاً حيّاً ومحسوساً. عندئذٍ، كنت أتحوّل إلى حكواتيَّة أمام جمهور متلهِّف للقصص الغريبة فأضيف تفاصيل جديدة وأغيِّر نبرة صوتي وأرى العيون الصغيرة تتنبّه، والصمت يخيّم: بل إنَّ بعضهم، وهم المفرطون في الحساسيّة، بكوا. وأشعر بنشوة النصر.

إنَّني في المطعم مع رجل يعجبني. أريد أن أغويه بأيِّ ثمن، أرمقه بنظراتي الفاترة، أغدو شهوانيّة بقدر ما يسعني، إنَّني إحدى لوحات دولاكروا. أمرِّر يدي في شعري. أقلب رأسي إلى الخلف فأكشف عن البشرة الناعمة والطريَّة لعنقي. لو كان بوسعي، لطلبتُ من النادل بضع وسائد، وستائر وطنافس فاخرة. حين أشعر أنَّه مستعد للإصغاء إليَّ بانتباه، أتأهّب. أغيِّر نبرة صوتي، أرتدي ثوب المرأة الفارسيّة، أهزّ أشرعتي وتحت أضواء عينيه المهزومتين: أتلو عليه أشعاراً لعمر الخيام. أتلوها أولاً باللغة الفارسيّة، وأترجمها له إلى اللغة الفرنسيّة بعد ذلك.

مهتاب به نور دامن شب بشكافت
مى نوش دمى بهتر از اين نتوان يافت
خوش باش و مينديش كه مهتاب بسى
اندر سر خاك يك به يك خواهد تافت

أنتظر قليلاً لأرى تأثير هذه الأبيات عليه. لم يفهم شيئاً، ولا كلمة، لكن عيناه تلمعان بإزاء اللغز الجارف للغة الفارسيّة وشِعْرها. هل أغرته لأنَّه لم يفهم شيئاً؟ لا يهم، لقد هُزِمَ. أقذفه الآن بالترجمة، بهدف الإجهاز عليه.

قد مزَّق البدر ستار الظلام
فاغنم صفا الوقت وهات المدام
واطرب فإنّ البدر من بعدنا
ينزل علينا في طباق الرغام(*)

- هذا عظيم يا مريم. ثمة موسيقى خاصة جداً، نواح عذب، حزن خجول لكنه عميق. أكاد أصبح عاشقاً...

لبيك لبيك؟ ها هو بين يديك!

إسطنبول. إنَّه عيد ميلاد أحد الموسيقيين المغرمين «بالشرق». يعزف الناي والساز والتار(**). يتحدث اللغتين التركية والفارسيّة. لم أكن أعرفه، لكنَّه دعاني لأنَّه لدينا صديق مشترك. حتى قبل أن أدخل باب شقته يتخيل الآن محظيّة ترتدي خماراً شفافاً ومتماوجاً، ذات بشرة حارة ولاذعة، تتقدم حاملة دناً تحت ذراعها، وتسكب له نبيذاً وهي تشدو بصوت رخيم وعذب.

(*) **رباعيات الخيام**، ترجمة أحمد رامي.
(**) الساز والتار: أسماء لآلات موسيقية.

أقول له إنَّني لم أجلب هديَّة عيد ميلاده لكن يمكنني أن أنشد له أشعاراً لعمر الخيام. تصيبه صدمة. هذا يسلبه عقله حتى قبل أن يسمعني. فمجرد فكرة أنَّه يمكنني أن أنشد شعراً فارسيّاً تربكه. يشعل سيجارة فجأة، يبدأ بالضحك دون سبب ويبسط أمامي لُماماته من الثقافة الفارسيَّة التي يريد أن يخفي وراءها قلقه ويحافظ على شيء من تماسكه. يستعين بالعطار وحافظ الشيرازي والساعدي والرومي، ويتشبَّث بماسينيون وكوربان حتى لا يغرق. إنَّه ناجح سلفاً.

مى خور كه به زير گل بسى خواهى خفت
بى مونس و بى رفيق و بى همدم وجفت
زنهار به كسى مگو تو اين رازنهفت
هر لاله كه پژمرد نخواهد بشكفت

ينظر إليّ بإعجاب، وبصوت يشوبه تهدّج طفيف، يطلب مني الترجمة. يتوقع أنّ هذه ستكون ضربته القاضية.

اشرب فمثواك التراب المهيل
بلا حبيب مؤنس أو خليل
وانْشُق عبير العيش في فجره
فليس يزهو الورد بعد الذبول(*).

(*) ترجمة أحمد رامي.

لم يقل شيئاً. ظلّ متسمراً. مفتوناً. يقع رماد لفافة تبغه على الأرض. أستمتع بانتصاري، ولو أنه سهل. هكذا هو الحال دائماً مع «المستشرقين»، إنهم فرائس يسهل اصطيادها، ويمكن توقّعها. لبيك لبيك؟ ها هو بين يديك!

يجذبني هذا الرسَّام المجنون لكنّه يقاومني. هل سيقاوم شاعري الفارسي؟ أنشد له بعض أبياته. يبتسم، ثمّة شيء ما يذوب فيه. حسن، ها أنتَ تُروَّضُ قليلاً.

أشرب كأساً، يهتم الرجل بي على نحوٍ غامض، أتلو عليه أشعار الخيام فقط لأرى تأثيرها عليه. عجباً! يسقط. يريدني أن أصعد إلى شقته.

ذاك له عينان جميلتان لكنه حين يفتح فمه، تعتريني رغبة بالتثاؤب. هيا، رباعية صغيرة ومع شيء من الحظ سيُعيد الخيام إليه نشاطه.

إنني في غاية الثمل، وحتى لم أعُد أعرف من يجلس مقابلي، لكنني أريد أن أرى إن كنتُ سأغويه. أُنْشِدُ رباعيّة مقطّعة، مشوّهة، أخطئ في أبيات الشعر، لا يهم، فلن يفهم شيئاً على أية حال. سيهتف متعجباً مثل الآخرين:

- أوه، إنَّها سحريّة، موسيقى اللغة الفارسية. إنَّها جميلة، جميلة...

- أجل إنَّها في غاية الجمال وإنَّه لأمر رائع أن أكون فارسيَّة يا غنوجي. هيا، إلى المقلاة، أنتَ أيضاً!

وأنت، هل تريد قصيدة أيضاً؟ هيا تعال، ليس هناك سبب لئلّا يكون لك خَيَّامُك أيضاً. سيوجد خيام لكلّ واحد من الناس، فلا تقلقوا، سيكون لكل واحد خيامٌ صغير تُنْشِدُه فارسية.

اغنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع الليالي الأمان
ولنشرب ونرفع الكأس فإنّ دوام الحال من المحال
فلن نكون إلّا تراباً يجد في صوغه خزاف يصنع الدنان
اشرب، فلسنا سوى دمى تحركها السماء وتمضي إلى فناء
ولا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان
اشرب، اشرب، اشرب واغرق في المدام
فكلّ من يفرغ دوره يطوى تحت الرغام
واسمع حكمة الوجود من التراب إلى التراب
فنحن رخاء القضاء ينقلنا اللوح أنّى شاء
اشرَب واسعَد بطعم الليالي قبل أن نلقى مستقر الفناء
اشرب، اشرب ولا تتهاون فنحن إلى موت إذا الزمان حان(*)

لبيك لبيك؟ ها هو بين يديك!

(*) هنا تنشد ما يحاكي رباعيات الخيام كما تتذكرها وهي في حالة ثمل وصيغت بالاعتماد على ترجمة أحمد رامي.

الرؤيا

أودّ لو أصمت حين يسألني أحد عن أَصلي. أودّ لو أروي شيئاً آخر، أي شيء، لو أختلق وأكذب. وأودّ أيضاً لو أنَّهم يطرحون عليَّ أسئلة أخرى غير متوقَّعة، مفاجِئة، وحتى سخيفة، وأن يباغتوني بها. وفي الوقت ذاته، أستغرق في عالمي الغريب الصغير وأستمدّ منه كبرياءً ممتعاً. كبرياء لأنَّني مختلفة. لكن يلازمني دوماً هذا الضيق، هذا الصوت الداخلي الذي يذكِّرني بأنَّ كل ذلك ليس أنا، وأنَّني أختبئ خلف قناع، قناع الروائية المنفيَّة. إنَّني أقدِّم لكم هذا القناع، فخذوه، إنَّني أضعه بين أيديكم.

2012 - باريس. أنا مدعوة للعشاء في منزل صديق كردي، يدعى آزاد.

اضطرَّ أن يهاجر من تركيا قبل عشر سنوات بسبب نشاطه السياسي بعد أن قضى عقوبة قاسيَة في السجن. إنَّه كردي شيوعي وصحافي. تعتريه هذا المساء رغبة جامحة لمعرفة كلّ شيء. فينهال بِسَيْل من الأسئلة عليَّ.

لكن في ذلك المساء، كانت يدايَ دبقتين وخاملتين، وهما مستقرّتان على ركبتي، وعيناي متضايقتان، وحلقي متشنج.

أروي حكاية خالي سمعان في السجن. ولا أفلح في إحياء النوشابي الشهيرة. بدأتُ أرشح عرقاً بارداً. ينهال آزاد عليَّ بوابلٍ من الأسئلة، وقد أثارته هذه البداية المرهقة للقصة.

لا أفلح في إيجاد كلماتي. أتوقف لبرهة، ألتقط أنفاسي قليلاً، أرفع عيني وأرى خالي سمعان. أؤكد لكم: إنَّه يجلس القرفصاء مقابلي، في أعلى الخزانة، يطوّق ركبتيه بذراعيه. ينظر إليَّ بعينين يائستين وكأنَّهما تتوسّلان أمراً ما. يبدو لي أكثر نحفاً ومرضاً كما كان عند خروجه من السجن. أهمس له أنَّني لا أستطيع، أنَّني لم أعُد أستطيع أن أروي حكايته، آسفة. لا يقول شيئاً، أتفحّصه بدوري وألاحظ أنّ فمه ممحو. ينظر إليَّ بحزن لا نهائي.

أشرب جرعة ماء. أتابع قصتي، لكنَّ خالي لم يزل هناك فوق تلك الخزانة، يحدِّق بي.

أروي لآزاد حكاية الألعاب التي اضطررتُ لتقديمها إلى أطفال الشارع بسبب مكارينكو الذي قرأه أهلي وفسّروه وقرروا أنَّه يترتب على ابنتهم أن تلغي حسّ المُلكية. ينفجر آزاد ضاحكاً ويتلوى على كرسيّه.

أنضح عرقاً الآن. أنهض وأتجه إلى المغسلة لأُبَرِّدَ نفسي. في مرآة الحمام، أنظر، فلا أرى المرأة ذات الثلاثين عاماً، لا، وإنَّما أرى فتاة صغيرة في سن الخامسة تحدق فيَّ بعينين سوداوين واسعتين مستفهمتين.

أعود إلى الصالون، فأرى ألعابي على الأريكة، مرتَّبة ومصفوفة وجالسة برزانة، وآزاد يجلس بينها ويبتسم لي بشيء من البلاهة.

أقول في سري عندئذٍ إنَّه يترتب عليَّ حتماً التحدّث إلى طبيب نفسي حول هذا الأمر. سأبدأ بإجراء تحليل نفسي. أختنق، أحتاج للهواء. أجلس وأقول لصديقي الكردي إنَّني متعبة جداً ويجب عليَّ العودة في الحال.

لا يفهم، ويلحّ، لكنَّ ذلك يفوق قدرتي على الاحتمال.

أتجه نحو الباب لأغادر لكنَّني أتوقف فجأة. أرى خالي الآخر جالساً على مقعد، ورأسه منكبّ على حجر صغير ويحمل بيده إبرة. ويبتسم لي هو أيضاً بحزن لا حدّ له وفمه ممحو تقريباً، وبلا معالم. يناولني الحجر. أحدِّق فيه. حروف اسمي منقوشة بمهارة عليه. تغرورق عينايَ بالدموع، وأعضُّ على شفتي. يسألني آزاد إنْ كنتُ على ما يرام وعن سبب وقوفي متسمِّرة هناك، أنظر إلى الأرض. أنتزع الحجر من يدي خالي وأهرب. أركض في الشارع وأصرخ بتلك الأشباح أن تتركني وتذهب وألَّا تعود وتتسلط عليَّ. أرمي الحجر بعيداً أمامي. يصطدم بباب معدني ويسقط على الرصيف الباريسي مهملاً.

ثمة سيارة أجرة عامة. أقفز داخلها، ورحتُ طوال الطريق أبكي بصمت. أبكي لأنَّني خائفة أن ينتهي بي الحال إلى الجنون. أعود إلى منزلي.

أجد جدتي جالسة في غرفتي. هلوسة أخرى أيضاً. لم أعُد أحتمل، أَهُمُّ بالصراخ. لكن ابتسامتها تهدئ روعي.

- اجلسي يا مريم. سأصبّ لك كأس شاي.

- هذا مرعب يا ماما معصومة. لن يسعني أن أروي حكاياتي الفارسيَّة ثانية. تصيبني هلوسات بدلاً منها.

- ستروينها بعد الآن بطريقة أخرى. ما حدث لك هذا المساء هو أمرٌ حسن. إنَّه فأل خير.

- فأل خير؟ ماذا تقولين؟

- جاءت الأشباح لتتسلط عليكِ: جاءت لتخبرك بشيء ما.

كانت نظراتها حزينة.

- هذا لأنَّني خيبتُ أملهم.

- سيترتب عليك أن ترويها بطريقة أخرى. لم يعُد بوسعكِ الاكتفاء بالابتهاج والتباهي على هذا النحو بما تسمينه حياتك الروائية.

- أرويها بطريقة أخرى؟ لكنَّني أرويها بشكلٍ جيد جداً. الناس يحبونها! يصفّقون ويطلبون المزيد!

- أجل أعرف. أنتِ حكواتيَّة منذ نعومة أظفارك. كنتِ تحبين دوماً اختلاق القصص.

- وأين المشكلة إذاً؟

- شذّبيها. لا تَرْوِيها بتواضع متكلف وكبرياء دفين، وإنَّما ارْوِيها من الداخل يا مريم، من الداخل. دعي ألمك يُفصح عن نفسه.

فجأة، اختفى كلّ شيء. الجدة والكؤوس والشاي. لم يعُد يوجد سواي في هذه الغرفة. أسحب الستائر وأنا أتساءل عمّا يوجد في الداخل. وبادئ ذي بدء، ما هو «الداخل»؟ وماذا يعني؟ بقيتُ دوماً أَحْذَرُ هذه الكلمة «الداخل»، لأنَّني أقرنها بالوهم، بشيء هارب نطارده دون جدوى. لكنَّ الجدة تكلّمت: لم يعُد استعراضي البراق والفخم مقنِعاً. أنظر إلى الطاولة الواطئة الموضوعة أمامي التي كان يوجد فوقها، منذ بضع لحظات خلت، كأسا شاي. على سطحها الفارغ الآن، أضع قناعي الأول، قناع الألم المكبوت.

كان يا ما كان

أب وأم وابنة
للأب هيئة شبح يتسلل إلى الجدران
وجه الأم متوارٍ وترتدي ثوباً طويلاً يكنس رفله الأرض
والفتاة عبارة عن ظلٍّ باهت، ساقاها متدليتان في الهواء
وثلاثتهم يحتفظون بسرّ في راحة يدهم
على أكفّهم ثمة كلمة منقوشة: منفى

لم تعد للفتاة ألعاب
يُحكى أنَّها استبدلتها بحروف أبجديَّة
ولم يعُد للأم ابتسامة
يُحكى أنَّها استبدلتها بحفنة ذكريات
ولم يعُد لدى الأب صبوة الشباب
يُحكى أنه استبدلها بالنقود
وأصبح الثلاثة، شيئاً فشيئاً، غرباء

كانت الأرض تفرّ باستمرار من تحت قدمَي الفتاة
والذاكرة تهرب باستمرار من رأس الأم
والنقود تنقص دوماً بين يدي الأب
وراح ثلاثتهم يفقدون شيئاً فشيئاً طعم الحياة

عندئذٍ، أشاحت الفتاة بوجهها عن الأرض لتتعلّم الطيران
وطردَت الأم الذاكرة لتتعلم النسيان
ولم يعُد الأب يحسب نقوده ليتعلم الحلم
وأخذ ثلاثتهم يضحكون

راحت ضحكاتهم تتصادى في البعيد
حتى بلغت أسماع عائلتهم
كانت ضحكاتهم قويَّة جداً
حتى أنَّها زلزلت أرضهم المهجورة
كانت ضحكاتهم مرتفعة
حتى أنَّها أيقظت ذاكرتهم المخدَّرة
لكنَّهم، من فرط الضحك، تغرورق عيونهم بالدموع الآن

ومع ذلك كانت ضحكاتهم الجميلة والقويَّة
تتصادى كما يتصادى نحيبهم الآن
النشيج
نشيج الأب بهيئة ظلّ يتسلَّل إلى الجدران

نشيج الأم بوجهٍ متوارٍ وهي ترتدي ثوباً طويلاً يكنس رفله الأرض
ونشيج الطفلة وهي ظلّ باهت بساقيها المتدليتين في الهواء
وثلاثتهم يحتفظون بسرٍّ في راحات أيديهم
وعلى أكفّهم نُقشت كلمة: **منفى**.

الولادة الثانية

«على المرء ألَّا يكون أنا فقط، بل ألَّا يكون نحن أيضاً. تمنحه الأمة إحساساً بذاته. عليه أن يشعر بهذا الإحساس بالذات في الغربة. أن يتجذَّر في غياب المكان. ينفصل عن المجتمع والمنبت. يغترب عن أي وطن دنيوي».

سيمون فايل - **اللطف والثقل**

خمسة عشر متراً مربعاً

يوليو 1986 - باريس - شارع ماركس دورموي

نحن أمام بابٍ خشبي كبير. يضع أبي الحقائب، ويضغط على زرٍّ صغير ويدفع الباب. نصعد الدرجات المفروشة بسجادة حمراء فخمة ذات زخرفات كستنائية وصفراء فوقها. إنَّه لَمِنَ الممتع أن نمشي على هذه السجادة الكبيرة.

ثمة بابان كبيران في كلّ طابق، شقتان. إنَّها جميلة ولامعة وبراقة ومهيبة، تلك الأبواب. ألاحظ أيضاً وجود جرس صغير ذهبي أو فضي، على الجانب الأيمن.

في الطابق الثالث، يُفتح باب بهدوء عند عبورنا. ومن فُرْجَته، رأيتُ امرأة عجوزاً تختلس النظر إلينا بفضول دون أن تقول شيئاً.

نصعد ونصعد لكنَّني ألاحظ أمراً غريباً، فابتداءً من الطابق الرابع، تصبح الأبواب أقلّ جمالاً وتتشقّق الجدران ويتساقط الدهان في بعض المواضع، وفي الطابق الخامس تختفي فجأة السجادة الحمراء. كأنّ مسحوقاً سحريّاً يَفقد تأثيره كلّما صعدنا فيكتشِف عن حقيقة القبح الفجّة، ويترك معطفه الفاخر يسقط ببطء. سندريلا تفقد

شيئاً من جمالها في كلّ طابق. وبدأت تفوح رائحة العفونة والرطوبة والفقر.

وصلنا أخيراً إلى الطابق السادس. هناك، يوجد أربعة أبواب صغيرة ملوّنة بلون أزرق ملتبس مع قفل في سطحها. مصفوفة في بهو الدرج ذاته. وباب خامس كُتب عليه **W.C**. لم أفهم هذه الكلمة. كانت الأرضيّة محَفَّرة في عدّة مواضع. يبتسم والدي متضايقاً. كان يلهث وبقفا يده، يمسح جبينه ويغمغم ببضع كلمات ترحيب ثم يفتح الباب.

لم يكن الباب يفضي إلَّا إلى حجرة وحيدة، استديو مساحته خمسة عشر متراً مربعاً.

أبحث عن المغاسل، مغاسلنا، فلا أراها. أسأل أبي عن المغاسل وأنا قلقة. إنَّها في بهو الدرج، وهي مشتركة. هكذا إذاً، إنَّها في الباب المكتوب عليه **W.C**. أشعر بالرعب لفكرة أنَّه سيترتب عليَّ تقاسم خصوصيتي مع آخرين مجهولين. والدوش؟ لا يوجد دوش. يعدنا والدي أن يصنع واحداً عمّا قريب. يرغم نفسه على الابتسام ليُخفي ضيقه وخجله. تسقط أمي محزونة فوق السرير الوحيد في الغرفة الوحيدة. وتتفاقم وطأة صمتها الذي لازمها حتى الآن.

أعاين الحجرة: ثمة مغسلة، تلفاز صغير، خزانة، طاولة، ثلاثة كراسي، نبتة. نافذة أهرع نحوها. أرى الطريق، الأسقف الباريسيّة، مدخل المترو. ها نحن الثلاثة أخيراً بعد مصاعب جمّة ومحن قاسية، والشيء الوحيد الذي يشغَل بالي هو تلك المغاسل المشتركة التي أخشى استخدامها.

الكرواسان

اشترى أبي قطع «كرواسان» من المخبز المقابل. يبسطها بعناية على الطاولة وهو يشرح أنّ الفرنسيين يتناولون هذا النوع من الطعام على الإفطار. يردِّد علينا اسمها لكي نحفظه.

لم تأكل أمي منها، ولا أنا أيضاً. إنَّها ليست جائعة. أمّا أنا فخائفة، وأريد اللافاش، ذلك الخبز الإيراني الأبيض والرقيق جداً كأنَّه ورقة، أو خبز الحجر، وهو نوع آخر من الخبز أكثر سماكة يخبزونه في فرن على سرير من الجمر، وأحياناً تبقى جمرة أو جمرتان عالقتان بالرغيف. أريد أيضاً شاياً أسود وجبنة تبريز.

أقول ذلك لأبي. يتنهد ويغضب. إنَّنا في فرنسا ولا أستطيع التنزّه في الشارع وشراء هذه الأشياء، عليكما أن تعتادا. لستما في إيران، لذلك أريحاني وتناولا ما أشتريه لكما.

يتراءى لي منزلنا في طهرانبارس. المطبخ الصغير الذي تفوح منه رائحة الشاي الأسود ورائحة خبز الحجر الساخن. تتراءى لي أمي تقطِّع شريحة عريضة من الجبن وتضعها في صحن. وهنالك

أيضاً النبتة المعرِّشة في الصالون التي تغطي الجدار وتتسلق حتى تبلغ السقف. كانت جدتي تقول إنَّ هذا النوع من النبات ينتهي إلى طرد المقيمين في المكان. حين كانت توجد هذه النبتة في منزلي، ينتهي بي الحال إلى الانتقال منه بسرعة.

أتذكر أيضاً صوت الراديو المفتوح دوماً، وبائع الشوندر الذي يمرّ في الشارع وهو يصرخ، وأبي يصلح شيئاً ما، في ورشته، وأسمع صوت مطرقته وصوت المعدن الذي تطرقه.

أجلس على كرسيي المفضل مع لعبتي التي أحضَرَتها لي جدتي من ألمانيا، كنت فخورة بهذه اللعبة لأنَّها جاءت من بعيد. أفكِّر أنَّني اضطررتُ أيضاً لإعطائها للأطفال الفقراء في الحي. أنتظر أن تحضر لي أمي بضع لقيمات من الخبز بالجبن أو الزبدة. لكنَّني لا أحب هذه اللقيمات حين تضع فيها الكثير من الزبدة. لهفتي للذهاب واللعب مع صديقتي المفضّلة شهلا. أعرف أنَّها هي أيضاً متلهِّفة. تسكن مقابل منزلنا بالضبط. تحب أن ترتدي ملابسي وأن تستعير ألعابي. ملابسها هي الملابس ذاتها التي يرتديها الصبيان. وأنا أستعير منها بنطلوناتها وهي تستعير أثوابي. حين نتبادل ملابسنا، تغدو هي فتاة أكثر، وأنا أَشْبَهُ بصبي. وهذا يعجبني كثيراً.

لكن ماذا نفعل هنا؟ في هذا الثقب الذي يفوح بالرطوبة والبؤس، مع الجمال المحفوظ للطوابق الأربعة الأولى فقط من هذا البناء.

نجلس نحن الثلاثة إلى هذه الطاولة المزيّنة بذلك الشيء الذي لا يسعني أن ألفظ اسمه. نجلس صامتين.

أفكر بحقيبتي وبكلّ الملابس الجديدة التي تحتويها، فقد أهدوني فساتين جميلة بمناسبة رحيلنا من إيران. هذا يجلب لي شيئاً من الفرح المفاجئ والخفي.

يسوُد صمت مزعج في الغرفة.

أنظر إلى قطع الكرواسان المصفوفة بحزن فوق الطاولة، بلا ذكرى، وبلا طعم مألوف، التي قاطعناها أنا وأمي بإصرار.

انتهى أبي إلى أن يأكلها كلَّها، وهو مغتاظ تقريباً، دون أن يقول شيئاً، وعيوننا مشدودة إلى ما يأكله.

2012 - أزقة بكين

عمري اثنان وثلاثون عاماً. أعيش في الصين منذ عامين. كنت مستعدّة لتقديم أي شيء من أجل قطعة كرواسان حقيقية، ولو من أجل رائحتها، تلك التي تفوح من الأفران الفرنسيّة وتخترق أنوفكم عند منعطف الشارع. أحنُّ إليها. أغمض عيني وأبحث عن رائحتها في ذاكرتي وأنا أعدو في أزقة بكين القديمة.

الحديقة

في عطلة نهاية الأسبوع، أتنزه أحياناً مع أمي في الحي. اكتشفنا فيه «حديقة صغيرة». يأتي الأطفال إليها ليلعبوا بعد المدرسة. تجلس الأمهات على مقاعد خشبيّة وحولهنَّ حاجز من عربات الأطفال الصغيرة. يثرثرنَ، يدخنّ ويقضمن. يصرخ الأطفال ويركضون، يبكون ويضحكون، يتقاذفون بالرمل والألعاب؛ أحياناً يشكّلون تحالفاً لإبعاد الطفل الأضعف، وأحياناً تولد صدامات قويَّة، وتواطؤات فجائية لبرهة، وخلال لعبة؛ وأحياناً ثالثة تحدث المأساة، وعندئذٍ يقطر الحزن والألم من وجناتهم القذرة. يبدو أنَّ جميع الناس يحبون هذه الحديقة الصغيرة. لكنَّها مكان لا أحبه. لذلك أجلس دوماً بجانب أمي على المقعد، ملتصقة بها، وهو ما كان يغيظها. تطلب مني أن أذهب للعب مع الأطفال الآخرين لكنَّني لا أتجرأ. ورغم أنَّني أشعر برغبة جامحة للعب معهم إلّا أنّ قوة ما كانت تُبقيني متسمِّرة على المقعد.

- لماذا لا تنهضين وتذهبين للعب مع هؤلاء الأطفال؟
- لا أريد. إنَّهم في غاية الوحشيّة.

- لكن بعضهم يبدون هادئين، هيّا، انهضي، وسترين، ستتسلين.

- لا.

تتنهد بعمق.

- وأنت يا أمي، لماذا لا تتحدثين إلى الأمهات الأخريات؟

- ألم تري لغتي الفرنسيّة؟ سيسخرن منّي. ولن أفهم شيئاً أيضاً ممّا سيقلنه لي.

- ولماذا نأتي إلى هنا إذاً؟

- ألا تجدين أنَّه من المهم مراقبتهنَّ؟

صورة غريبة لهذه الأم وابنتها، ساكنتان وسط كلّ هذا الهيجان، تمثالان فوق المقعد، مُحْزنتان، كلّ واحدة منهما فريسة قلقها، منفيتان عن الحياة الاجتماعيَّة لكنَّهما تراقبانها بنَهَم.

سبتمبر 1998

عدتُ بصحبة أمي إلى حيّ ماكس دورموي، وها نحن مقابل البناء الذي سكنّا فيه طيلة عام.

يجتاحنا حزن كبير، ولا نتجرّأ على الصعود، فثمة رمز جديد الآن للدخول وليس لدينا الرمز لفتح الباب ولا الرغبة بالدخول. نمشي في الشوارع، وفي الجوار، ونتوقّف أمام مدخل الحديقة الصغيرة، وينظر أحدنا إلى الآخر: لقد تعرّفنا على الحديقة الصغيرة

الشهيرة. دخلنا وجلسنا على أحد المقاعد لكنَّ الحديقة تغيَّرت. يُحزِننا أن نكتشف ذلك. ثم إنَّها فارغة في هذا الوقت من النهار، وليس ثمة شيء مهم يلفت نظرنا. رجل يجلس على مقعد وبيده لفافة تبغ بهيئة متألّمة. سيدة عجوز تفتِّت الخبز اليابس وترميه للحمام. عاملُ نظافة يكدِّس الأوراق. ليس ثمة صرخات أطفال. ولا عربات صغيرة للأطفال الرضَّع. ولا أمهات يثرثرنَ. أنظر إلى أمي لأستشفّ منها أثر هذا الواقع. أشعر أنَّ كلّ شيء سيتلاشى مثل هذه الحديقة الصغيرة، وأنَّ أيَّ مكان لن يشبه ما كان عليه قديماً.

نخرج. إنَّنا نشبه شبحين تائهين ولم نعُد نعرف ما جئنا نبحث عنه هنا. نكاد لا نتكلّم، ونفهم على نحوٍ غامض ما يدور في داخلنا.

ماذا دفنّا هناك، في تلك الشوارع، في الأعلى في الطابق السادس، في غرفة الخدم، في مدخل المترو الذي كنَّا نغرق فيه للذهاب إلى مدرستي كلّ صباح ونعود منه كلّ مساء؛ وماذا تركنا في كلّ محطة؟

مايو 2014 - إسطنبول - كراكوي

جاءت أمي لرؤيتي في إسطنبول، فأنا أقيم فيها منذ ما ينوف على العام. نجلس أمام البوسفور قرب جسر غالاتا، نتناول سندويش السمك المشوي. نراقب حياة سكان إسطنبول من حولنا. باعة يشوون سمك الطراخور، وآخرون يبيعون عصير الرمان والبرتقال، ولاجئون سوريون يتسوّلون ويأملون بالحصول على قطع

نقود صغيرة، وثمة غجر يعزفون على الأكورديون للحصول أيضاً على بعض القطع النقدية الصغيرة، وهنالك أفارقة يبيعون ساعات اليد، بينما تنتشر القطط في كلّ مكان وتنظر إلينا بصبرٍ على أمل الحصول على قطعة سمك صغيرة، بحّارة يربطون مركبهم، والسيّاح سعداء لوجودهم هناك، يضعون الدليل أمامهم على الطاولة ومن أعناقهم تتدلى كاميرات تصوير فوتوغرافيَّة، وأمي التي تتلذّذ بسندويشة السمك المشوي تلتهم كلّ الناس بعينيها المحملقتين.

نتابع المراقبة، في البداية صامتتين، وكلّ واحدة على حدة. على هذا النحو نتصرف دوماً. وعلينا أن نفهم ما نراه ثم نعلّق عليه، ونتبادل ونتشارك انطباعاتنا. أحياناً نستنتج أشياء مثيرة عن الوجود والحياة والموت. وتَحْمِلُنا تأملاتنا بعيداً جداً.

أتذكر هذا البيت من الشعر لحافظ الشيرازي يقول فيه: «اخلدْ إلى ضفاف ساقية وتَأَمَّلْ الحياة تمضي. . .».

تَأَمُّلُ الحياة المحيطة بنا. أنتِ مَن علمتني ذلك. الساعات التي قضيناها في تلك الحديقة الصغيرة، ثم في ما بعد في المقاهي الباريسية ندخّن علب السجائر الرخيصة، وجلوسنا على أطراف الرصيف، على مقاعد المنتزهات، على أطراف أزقّة بكين القديمة، على شواطئ البوسفور، في الممرات المتعرِّجة لسوق طهران الكبير، لا نفعل شيئاً سوى النظر والتأمل في كلّ ما يدور حولنا: الناس، المشيات والوقفات، الهيئات والظلال، الكلاب والقطط والعصافير، النباتات والأبنية، البضائع المعروضة في واجهات المحال التجارية،

اللافتات، الدراجات، كان كلّ شيء يمرّ عبر مختبرنا ومرصدنا الكبير للحياة.

كانت هذه الحديقة في الدائرة الثامنة عشرة في باريس بداية تواطؤنا المديد كمراقبتين.

رسائل

البنت الصغيرة ذات السنوات الست وأمها في المنزل. تراقب البنت الصغيرة أمها وهي تنظر عبر النافذة. أخذ كلام الأم يقلّ. واقتصرت لغتها على التواصل بالحدّ الأدنى، وعلى تبادل الأحاديث اليوميَّة حول بعض القضايا المفيدة والفراغ اليومي.

تنظر الأم لساعات عبر النافذة وهي جالسة على كرسي. تكتب رسائل مقابل النافذة. رسائل ترسلها إلى إيران، إلى أمها، وإلى أخيها في السجن، وإلى صديقتها. تعيش الأم هناك. لم تزل في إيران. أما هنا، فالحياة توقفت. والنافذة هي عبارة عن طريق مفتوح يتيح لها الفرار إلى هناك. إنَّها خَلاصها. يخنقها هذا الأستوديو الذي مساحته خمسة عشر متراً. تخنقها باريس. وفرنسا بأكملها.

تتأمّل الأفق، وترى فيه رسائل تتراقص وتحملها الريح بين هنا وهناك. رسائل تغادر ورسائل تصل، ورسائل تنتظر، ورسائل تُجيب ورسائل تبكي ورسائل تتذكّر، ورسائل تحافظ على ذاكرة المكان خشيَة أن يختفي، ورسائل معلّقة مثل إكليل كلمات طويل يمتدّ من السقيفة الباريسية حتى أسطح منازل طهران.

تكتبين الرسائل وتنتظرين الردود على رسائلك. عشْتِ هكذا طيلة عشر سنوات في عالم المراسلات. عالم صامت. كنتِ تطلبين مني أن أضيف إليها رسومات أو أن أكتب بضع كلمات بلغتي الفارسيَّة الركيكة. كنتِ تلحّين على زوجك أن يكتب أيضاً بعض الأشياء. وكنتِ تريدين أن يدخل كلّ الناس إلى عالم رسائلك الهامد، عالم الكلمات والأشباح. والحنين هو الثقب الأسود الذي كنت تريدين الغرق فيه وإغراقنا معك.

أخذت أحلام الأم تختفي بالتدريج في إيران. والقليل الذي بقي منها تلاشى في فرنسا، حلماً إثر آخر، فوق سجادة الغرفة وبالتحديد تحت كرسيّها.

شذرات من منفاها القسري. مشاريعها وطموحاتها، وهذه النزهات الصغيرة التي تميل إليها وتشكِّل حياة. كان كل شيء ينهار وكنتُ أراكِ تذوين شيئاً فشيئاً، وتصبحين أكثر فأكثر صورة شبحيّة، قسمات وجهك تتلاشى، ولم يعُد بالإمكان سماع صوتك بوضوح، واكتسبَت حركاتك تَمَهُّلَ شخصياتٍ تظهر في الأحلام، فهي ليست واقعيّة تماماً ولا وهمية تماماً.

طيلة عشر سنوات انتظرتِ في فرنسا. انتظرتِ العودة. لن تفعلي شيئاً آخر سوى انتظار العودة المتخيّلة. قرب أمك وإخوتك وبلدك. لكن لم يعد هنالك بلد ولا وطن ولا رائحة. كنتِ تنظرين من النافذة في الطابق السادس إلى الحياة أمامك. مخبزٌ على ناصية

الشارع، مطعم صيني يعلّق بطاً محمراً بكلّابات، متجر تبغ، ومدخل المترو. كنتِ تنظرين وحزنٌ شفيف في عينيكِ. والخجل، لم تكوني تتجرئين على التحدّث بهذه اللغة الأجنبيّة، وعوضاً عن الكلمات، كنتِ تبتسمين. ابتسامة تعتذر، الابتسامة المتضايقة لأولئك الذين لا يتحدّثون لغة البلد.

وددتُ لو أجمع بقايا أحلامك، وأنقذها، وأرتبها كلآلئ في إكليل كلماتي، وأن أعلّقه في أعلى شجرة لكي يتحرّك ويظلّ على قيد الحياة.

وددتُ أن أوقظكِ وأُنْعِشَكِ. أن أوضح قسماتك، وأضع الأحمر على وجنتيك وعلى شفتيك، وأن أحقنكِ بالحياة لكي تغنّي وتضحكي وتصرخي لكن ليس باليد حيلة، كنت تذوين بصمتٍ في ماءٍ متخيّل.

رسومات

ترسم الفتاة الصغيرة كثيراً. ترسم خطوطاً وهي جالسة على الأرض. تشبه رسومها الكوابيس، وتثير الخوف. تعبِّر فيها عن وجعها بقدرٍ ما تستطيع بسنواتها الست. تحكي دوماً الشيء ذاته. أب وأم يبكيان أمام جسد ابنهما الجريح الممدّد على الأرض. وفي رسم آخر الأب هو من ينزف، ثقبٌ مضرّجٌ بالدم مكان القلب. والفتاة والأم تلمسان يده كأنَّهما في حداد. أو الأم تبكي، الشمس تبكي، القمر يبكي، فيبدو العالم برمّته يختفي في بحر من الدموع أمام جسد طفل ميت سقط أسفل الصفحة. وعلى ورقة أخرى نرى الأب والأم شبحين عملاقين، ذراعهما اليمنى أفعى، وذراعهما اليسرى عبارة عن سوط وابنتهما الصغيرة الواقفة بينهما صغيرة جداً.

رسمتُ مخاوفي وصدماتي النفسيَّة خلال عام. عام وصولنا إلى فرنسا. وبعد ذلك توقفتُ ذات يوم. شعرَ والديّ القلقان بالذنب وهما يريان تلك الرسومات، لكنَّهما لم يحرِّكا ساكناً لإيجاد حلّ. اكتفوا بالحديث عنها لأصدقائهم الذين لم يكن لديهم أدنى فكرة عن هذا الأمر سوى أن طفلة منفيَّة في عمر الخمس سنوات لا بدّ أن

تتعرض حتماً لصدمة نفسيَّة وأنّها ستزول مع الوقت. هذا أمر طبيعي.

2008 - باريس الدائرة السادسة - عيادة المحلل النفسي

حجرة كبيرة. مكتبٌ خشبيّ جميل من طراز لويس فيليب يجلس خلفه رجل أصلع في الخمسين من عمره. أجلس فوق مقعد. نوابض قاعدته فقدَت مرونتها بسبب كثرة المؤخرات التي جاءت لتلتجئ إليه، مسنداه مرتفعان، وهو ما يمنحني هيئة مضحكة وصبيانيَّة بذراعي المرتفعتين والمتباعدتين؛ أشعر أن هذين المسندين يسجنانني: هذا المقعد، كان سجناً.

ثمة صورتان كبيرتان معلقتان على جانبي مكتبه فوق الحائط، إحداهما تمثل فرويد بوجهه العابس وهو يحمل لفافة تبغ في يده، والأخرى وجه مارلين مونرو الشهواني وهو في نشوة، بعينين نصف مغمضتين، وتحت هاتين الصورتين وبينهما تماماً رأس المحلل النفسي اللاكاني(*) اللامعة ذو العينين الشبيهتين بعيني سمك الشبوط.

أحضرتُ له رسوماتي المرعبة في الجلسة السابقة. أنتظر الحكم. يُعيدها لي، يتنهّد بعمق ويعترف: وجعك ليس مرتبطاً بالمنفى... يمكن لطفل أن يعيش المنفى كتجربة مثيرة، كانطلاقة جديدة، كاستكشاف لبلد مجهول... وجعك مرتبط بالعلاقة المشوّهة القائمة بينك وبين أمك وأبيك.

(*) من أتباع مدرسة جاك لاكان في التحليل النفسي.

لا أقول شيئاً. أكزُّ على أسناني. هذا الهَوَس بإرجاع كلّ شيء إلى أمي وأبي يزعجني إلى أقصى حدّ. إنَّه المثلث الصغير المشوّه والخانق الذي يريد هذا الرجل أن يغرسني فيه منذ بداية جلساتنا.

وبعد ذلك جاءت هذه الرسومات لتتسلط على لياليَّ. في سنّ السابعة من عمري، انتقلنا للإقامة في حيّ آخر من أحياء باريس، شارع جوزيف-ديجون، في شقة أكبر ومريحة أكثر. وصار لديّ حجرة خاصة بي. شكَّل هذا الانتقال اضطراباً جديداً لي، واندسّ شبح المنفى في كلّ تبديل للمكان، مهما كان طفيفاً، وصار أيّ تغيّر مكاني يقلقني على نحوٍ لا يصدّق. كنتُ أستيقظُ في منتصف الليل متعرِّقة لأنَّني حلمتُ بأفاعي تخرج من قاع سريري لتعضّ قدميَّ. وكنتُ أذهب إلى سرير والديَّ اللذين يستشيطان غضباً، لا سيما أبي، لأنَّهما لم يكونا يريان في ذلك إلَّا نزوة وتمرّداً من جانبي، ما داما يجهلان تماماً حجم الوجع والذعر الذي يتملكني.

أتذكر جيداً تلك الكوابيس المتكرِّرة. كنتُ أشعر بالشلل في سريري دون أيّ منجدٍ أو مغيث. ومرة أخرى أيضاً، كان يراودني انطباع أنَّ الكائنين اللذين يُفترض أنَّهما يحبانني ويحميانني لا يكترثان البتة بألمي، ولا يريان إلّا شيئاً واحداً: كنتُ أزعجهما أثناء نومهما. لكنني لم أتخلَّ عن ذلك، وبقيتُ أعود إلى حجرتهما وأتكوّر في زاوية، وأحياناً عند حافة السرير، على الأرض، مثل كلب، متظاهرةً بأنَّني صغيرة جداً، لأثير شفقتهما. كان والدي يغضب ويُعيدني إلى غرفتي. فأصرخ بأعلى صوتي لأوقفهما وأمنعهما

عن النوم، وأحياناً كنتُ أتشبّث بأغطيتهما وبالباب وبكلّ ما أجده في طريقي. كانت تلك مشاهد مرعبة. كنتُ أصرخ أنّ الأفاعي ستقتلني إن عدتُ إلى سريري. وكان والدي يقودني بالقوة إليه ويثبتني فوق الفراش. فأشعر أنَّني منبوذة، وشبه ميتة من كثرة ما صرخت وبكيت.

ازداد قلق أمي. فطلبَت من إحدى صديقاتها عنوان طبيب نفسي. وقرَّرت أن تأخذني إليه عندما غيّرت الصدفة كل شيء فجأةً.

شيرين

نزلت أسرة أحمدي ذات يوم في منزلنا. أسرة مؤلفة من زوجين لاجئين مع ابنتهما شيرين البالغة من العمر عشر سنوات. أبوها كان يعرف أبي، فقد ناضلا معاً في طهران. وافقنا على استضافتهم حتى يجدوا شقة. وقضوا عندنا ثلاثة أشهر من شتاء عام 1988.

أصبحت شيرين شريكتي في اللعب. رحنا نقضي ساعات نلعب معاً. كانت فَرِحَة ومفعمة بالحياة ومضحكة. وثمة تواطؤ وُلِدَ بيننا. كانت تنام في غرفتي وانتهَت كوابيسي. أخيراً، صرت أنام بسلام، وحين أستيقظ في الصباح، أراها على الأرض وساقاها الطويلتان الناحلتان المكسوّتان بالشعر تبرزان من الفراش، والشرشف يغطي نصف جسدها وشعرها الطويل مشعّث حول وجهها وعنقها.

كان جسدها كثير الشعر ولم تكن جميلة، لكن وجودها في منزلنا هو نعمة إلهية لأنَّها نجحت في تخليصي من كوابيسي وقلقي. كانت تشعُّ ألقاً وهي تنتقل من حجرة إلى أخرى، تثرثر وتضحك وتخلط الحابل بالنابل بفضولِ ثرثارة عجوز، وتطرح شتى أنواع الأسئلة.

غالباً ما كان أهلها يؤنبونها ويضربونها في حين كان أبي يردّد وهو يتنهد أنَّه لم يرَ قط في حياته فتاة ثرثارة مثلها. لكنَّها لم تكن تعبأ بالتحذيرات والصفعات وتواظب على نشر أمواج كلماتها من حجرة إلى أخرى وهي تدور حول نفسها. رحتُ أراقبها وهي تمثِّل مشاهدها على مسرح صداقتنا، مفتونة بطاقتها الهائلة. أصبحتُ جمهورها المفضّل. أضحكتني كلّ حماقاتها وقصصها السخيفة. كنتُ أجلس أمامها وهي تنطلق في تقليد كلّ مواقف أفراد أسرتها وأصدقائها ومعلماتها في إيران، تُحاكي أصواتهم وحركاتهم وتصرفاتهم، وتخترع كل أنواع القصص بشأنهم.

ارتدَت وشاح ومعطف أمها. وتناولت وسادتين كبيرتين ووضعتهما تحت قميصها على بطنها ومؤخرتها. ثم أخذت قلم رصاص أسود ورسمت زغباً ناعماً فوق فمها. وراحت تقلّد معلماتها في المدرسة. ظاهريّاً تبدو امرأة شريرة جداً.

- شيريييين، تعالي إلى السبوررررة.
- أجل في الحال يا سيدتي.
- جِدِي حلاً لمسألة الضرب هذه، وإن أخطأتِ، سأنتزع شعرة من شاربك، وبالضبط من فوق فمك.

تقلد والدها. تقلِّد جسده الهزيل الذي يعوم داخل بنطاله وقميصه الفضفاضين كثيراً بالنسبة إلى مقاسه. صنعتْ لحية وارتدتْ نظارة. وحَوَّرَت صوتها إلى صوت رزين وأبرزت بطنها إلى الأمام وهي تمشي.

- أعدّي لنا الطعام يا امرأة. إنَّني جائع، وأنتِ يا بنت، رتّبي البيت قليلاً. لا تنسيا، أنا من يأمر هنا.

عندئذٍ، تحك مؤخرتها وتُصدر صوت ضرطة من فمها.

فأنفجر ضاحكة وأنقلب فوق السرير.

حين كنتُ أخرج من المدرسة، كنت أسارع إلى لقائها، لأتذوّق بهجتها في الحياة. كما لو أنَّ لديَّ كنزاً في المنزل ويترتب عليَّ أن أسرع بالعودة لأتأكد أنَّه لم يزل في مكانه. تَخليتُ عن أصدقائي الآخرين في المدرسة، لم أعُد أهتم لأمرهم، صاروا مُضجِرين بالنسبة لي، ولم تكن لديهم نكهة شيرين.

- شيرين، أين أنت؟

أركض في المنزل. ليست في المطبخ ولا في الصالون ولا في غرفتي. تقول لي أمي إنَّها خرجت. أنتظرها. ينفد صبري. أسمع وقع خطواتها على الدرج. أقفز نحو الباب. إنها هناك، معتمرة قبعة صوف كبيرة. تكاد تخفي عينيها. إنَّها سمجة على نحوٍ لذيذ. نهرع إلى غرفتي وأجلس على السرير. وقفتْ أمامي على المسرح. أنظر إليها. تبدأ في أداء مشهدها، وهي تروي لي جميع المغامرات التي خاضتها في الخارج، مُهَوِّلَةً في الأحداث ومُشوِّهةً الواقع بشكل مهين.

شيرين التي لا تكلّ ولا تملّ، إنَّك أنتِ مَن هدّأت روعي دون

أن تعرفي ذلك في أكثر المراحل قلقاً من حياتي. كنتُ أخشى أن أنحني فوق ثقب إيران الأسود الضخم. أخذتِ بيدي وانحنيتِ معي فوقه. ونثرتِ فوقه الضحك والطفولة.

شيرين الساحرة، أنتِ من حوَّلْتِ البلادة إلى نعمة.

لم يستحقّ أحد قط اسمه مثلك: شيرين يعني «الحلو» في الفارسيَّة.

أنا، لا ألعب

جلستُ وحيدةً على مقعد. في باحة تكثُر فيها الأشجار الكبيرة وفي آخرها جدار رُسِمَتْ عليه لوحة جداريّة تمثل أطفالاً يلعبون، وتعكس بالضبط ما يحدث حولي. أطفال يلعبون الماريللا، والقفز فوق الحبل، يقذفون الكرة، يدحرجون الكريات الصغيرة، يضربون بأكفّهم على الصور ويصيحون واحد اثنان ثلاثة شمس، يلعبون الغميضة، يصبحون قططاً متأهبة، ويصغون لما قاله جاك.

أمّا أنا فلا ألعب.

لم يبادر أحد من كلّ هؤلاء الأطفال الذين يصرخون ويتسلون إلى دعوتي للّعب.

تجربة العزلة الأولى: ليس لديّ أحد ألعب معه.

لذلك أتظاهر بأنَّني مشغولة، وأبحث عن شيء ما على الأرض كما لو أنني أضعتُ غرضاً، أتنزه في الباحة، ألتقط الأوراق المتساقطة من الأشجار، أُمَثِّلُ دور المتباهية التي اختارت البقاء وحيدة. وعلى الأخص، لا أبدو بائسة في عيون الأطفال الآخرين. يقلقني ذلك: كم من الزمن سيستمر هذا الرياء؟

يحتكّ بي الأطفال وهم يركضون. كيف ألمسهم وأكلّمهم؟ لا أفهم لغتهم ولا يوجد أحد منهم يفهم لغتي. كم كرهت تلك الاستراحات الأولى بين الدروس.

عندئذٍ، تتخيل الفتاة الصغيرة ذات الأقراط السوداء الكبيرة حوارات مع أشخاص وهميين. تختلق قصصاً. قصصاً مسليّة تملأ الفم بالحقيقي.

إنَّها ملكة أسيرة لدى لغة أجنبية، تبعث رسائل سرّيّة بلغتها الأم إلى فارس شجاع سيأتي ليخلِّصها من هذه الكلمات الغريبة. إنَّها ساحرة ابتكرت دواءً سحرياً: يكفي أن تتجرّعه لكي تتكلّم على الفور لغة أجنبيّة بإتقان.

إنَّها عالمة مشهورة استطاعت أن تؤسِّس نظاماً لتعليم لغات ذا قدرة تنافسيّة يمكن للمرء بفضله أن يجمع كلّ لغات العالم في أسبوع.

تروي قصصها الواحدة تلو الأخرى وتجرّ خلفها في الباحة الرفل الطويل لمخيلتها المسلّية، الأثر الذي رَسَمْتُه وأنا في ذلك العمر على الأرض الحقيقيّة لأنظف الحياة أو أُجَمِّلها.

كان يا ما كان

ملكة تسكن في مكانٍ ناءٍ من الصحراء. كان شعرها طويلاً جداً حتى إنَّه كان يغطي جسدها من الرأس حتى القدمين. قدماها المنحوتتان من الرخام تمنعانها من المشي ولعينيها لون الزعفران

الممزوج بالتراب المحروق. ويداها، يداها الصغيرتان ذبُلتا بمرور السنين وأطراف أصابعها، عيدان جافة، مرصّعة بقطرات الندى.

استقرّت ذكرياتها مع الزمن على بشرتها، ورسمت متاهة أخاديد مثل سطور كتاب. كان بوسعها كلّما رغبت أن تبعد قسماً من شَعْرها لتقرأ على جسدها شذرة من حياتها. كانت تمسك عندئذٍ مرآةً محطّمة وتتصفّح نظرتها المخضّلة بالحنين أخدوداً ثم آخر وأيضاً آخر حتى يحلّ الليل ببطء ويُغلق الكتاب.

كانت قطعٌ من الزجاج تغطي أرض قصرها. فقد حطمت الريح التي تصفر ليلاً نهاراً النافذتين الوحيدتين وعبر هذين الفمين الفاغرين كان صوت الناس البعيد يتسلّل بمنتهى الهدوء كأنه سرٌّ إلى أذنَي الملكة الحساستين.

وكانت ترغب بدورها أن تهمس لهم بسرّها. وتفتح أمامهم كتاب حياتها العظيم. وتضع بين أيديهم شذرات من الذاكرة. وكانت رغبتها من القوة بحيث إنّها أخذت تروي ذكرياتها بصوتٍ عالٍ. وعندئذٍ كانت تتضرّع للريح أن تحمل كلماتها بعيداً، بعيداً جداً، حتى يسمع الناس قصتها، هناك، في مكان ما من الصحراء.

كانت النهارات تزفر كلّ ليل والليالي تولد كلّ نهار... وذات صباح لفظت الملكة أنفاسها الأخيرة. كان شعرها يغطي جسدها من الرأس حتى القدمين مثل كفن.

والريح لم تحمِل قطّ كلماتها إلى البعيد. جاءت أغلب الكلمات لتموت عند قدميها والمحظوظات منهنَّ اجتزن النوافذ، لكن الدوار أصابهنَّ وسقطنَ على الفور أمام باب القصر.

أناس منهكين من عبور الصحراء. الأقدام مرضوضة والبشرة محروقة والأجساد متخشِّبة بسبب تقلّبات الطقس. على رأس المجموعة رجل عجوز. تتفحص عيناه المحتقنتان بالنار والرمل والريح الفضاء الشاسع بحثاً عن مكان يرتاح فيه، وعلى الأخص عن مكان يمكن لجماعته أن تستقرّ فيه أخيراً.

رأى في البعيد قصراً يبرز من الأرض كأنَّه سراب. أشار بيده إلى جماعته أن تتبعه. طرَقَ باب القصر بثلاث ضربات سريعة.

همسَ الصمت لهم أنَّ هذا المكان أصبح خراباً منذ قرون.

وشوَش الغبار لهم أن هذا المكان يحوي ضريح ملكة.

تراجعت الجماعة خطوة إلى الخلف وهي مذعورة: أمّا العجوز فقد تقدّم. التقط أمام الباب حفنة كلمات راقدة فوق الرمال ووضعها بعناية في جيبه واختفى جسده في المسكن الغامض.

لم يعرف أحد ما رآه، ولم يعرف أحد ما فعله. حين خرج منه، قال بحسرة:

«سيكون هذا القصر منزلنا، وهنا ستمنح نساؤنا الحياة بحبّ وسينتهي شيوخنا إلى إحيائها بوقار».

قال صوت فضولي من بين الحشد: «ما اسم هذا القصر؟».

عندئذٍ، العجوز الحكيم الذي كان يستطيع ابتكار كلمات بقدر ما يوجد من أشياء أشار نحو القصر بإصبعه ونظر إلى جماعته:

«أسميه مملكة المنفى».

«مملكة المنفى»

أخذ الحشد يكرِّر الكلمات بصوت خفيض وهو مندهش.

راح كلّ واحد يردّدها كأنَّه يفك لغزها.

وتصاعد هذا الهرج والمرج حتى وصل إلى النافذتين المحطمتين للقصر ودخل إلى غرفة الملكة التي لم تعُد إلّا كومة رمل فوق العرش كنستها الريح للمرة الأخيرة.

الجرس يرن

أرى الأطفال يتراكضون في جميع الاتجاهات وهم يصرخون. أمّا أنا فبقيت جالسةً على هذا المقعد. غير قادرة على التحرّك. اصطفّ كل تلميذ في رتل خلف راشد، معلّم أو معلِّمة، تمهيداً للصعود إلى الصف.

لا أعرف أين أصطف. وأيُّ رتل هو رتلي؟ ومَن يجب أن أتبع؟ وأيُّ مجموعة هي صفي؟

أخفقتُ في الدخول ولم أرَ وجهاً يشبه وجه تلك السيّدة السوداء النحيفة والطويلة ذات الشَّعر القصير والمجعَّد. إنَّها التي استقبلتني منذ بضعة أيام مع المديرة لتعرِّفني على التلاميذ الآخرين.

لم أتعرّف على أي وجه من وجوه الأطفال الذين قابلتهم يوم الزيارة لفترة وجيزة.

كنتُ تائهة تماماً ووحيدة، فصنعتُ لنفسي فقاعة كانت على الأرجح تخفيني عن أعين الآخرين لأنَّ أحداً لم يرني. ألم أكن موجودة؟

سأنتظر قليلاً. بالتأكيد سيأتي شخص راشد ليهتمّ بي. ستظهر معلمتي وستصحَبني إلى الصف.

ستصعد أرتال التلاميذ المصفوفة مثنى مثنى إلى صفوفها، رتلاً إثر رتل، خلف أساتذتهم.

لم يبقَ سوى مجموعة واحدة، وها هي تصعد أيضاً مثل الآخرين وتمرّ أمامي كما لو أنَّني غير مرئيّة.

لكن لا، لا أحد يعيرني انتباهه، حتماً لا أحد.

أصبحت الباحة خالية الآن. ألقي نظرة على اللوحة الجداريَّة وأرفع بصري نحو الأشجار.

يعتريني قلق أصمّ. تدفعني قوة للمغادرة والفرار من هذه المدرسة. أرغب بالذهاب. أنهض. أتوجّه نحو الباب الكبير الأزرق، أمرُّ من أمام حجرة البوابة دون أن تراني وأسحب الباب بكلّ قوتي وأخرج.

أصبحتُ خارجاً. أبدأ في الركض. لا أريدها أن تمسكني أو تُبلّغ عن هربي. أشعر أنَّني مذنبة بالفرار على هذا النحو. أتابع الجري. لا أعرف أين أذهب. أريد العودة إلى المنزل. لكن كيف أعود إليه؟ أي مترو أستقل؟ إنَّني حائرة ومُهمَلَة وغريبة. وأشرع بالبكاء.

أسمع صوتاً يناديني. أبحث عنه. يتضح الصوت شيئاً فشيئاً. إنَّه صوتها. أتعرّف على نبرة صوت جدتي. ألتفت وأراها جالسة على مقعد بجانبي، هناك، على الرصيف. إنَّها هناك. لا أصدّق عيوني. أرتمي في أحضانها وأجلس على ركبتيها، وأضمّها بقوة.

تمسِّد شعري بهدوء. وتمسك وجهي بيديها وتنظر في عينيّ بكلّ ما أوتِيَت من لطف وعذوبة لكي تواسيني.

- مريم، يجب أن تعودي إلى مدرستك. لماذا هربتِ بهذه الطريقة؟

- إنني غير مرئية في هذه المدرسة. لا أريد العودة إليها.

- إنكِ مرئية. أنا أراك بكلّ وضوح.

- أنت جدتي وتعرفينني. أما هم فلا يعرفونني.

- سيتعرّفون إليك. سيتعلّمون أن يروك كما أراكِ. هيّا، انهضي وعودي إليها.

- لا، أريد البقاء بين ذراعيك.

- إنكِ ناجية، لا تنسي ذلك أبداً.

لم تعُد موجودة. أصبحتُ وحيدة على المقعد. أرى من بعيد العلم بألوانه الثلاثة يرفرف في الريح. علم المدرسة.

أدفعُ الباب الكبير. أدخل إلى حجرة البوابة. تنظر إليّ مندهشة وتكلِّمني بالفرنسية. لا أفهم شيئاً لكنني أخبرها باسمي وكنيتي واسم معلّمتي الذي حفظته عن ظهر قلب.

تهزُّ رأسها لتشير إلى أنَّها فهمت وتصحبني إلى صفي.

يخفق قلبي بشدّة، ويوشك أن ينفجر.

تطرق الباب. تأتي السيدة بيري لتفتحه وتهتف متعجِّبة حين تراني، وترتسم ابتسامة عريضة على وجهها وعطفٌ صادق يُشعُّ من عينيها، وتأخذني من كتفي وتقودني إلى مقعدي. أُخْرِجُ دفاتري من حقيبتي. أتفحَّص بسرعة قاعة الدروس ثمة خارطة كبيرة لفرنسا معلقة على الجدار مقابلي.

تُغلقُ الباب ثانية وأحضر أول دروسي باللغة الفرنسيَّة.

أنا، لا أتكلم

بضعة أسابيع مضت. لم تزل الفتاة الصغيرة لا تكلم زملاءها. تصرّ على إغلاق فمها. فمٌ مختوم بالشمع الأحمر، لكن العينين والأذنين مفتوحتان جيداً. تأخذ وتسجّل وتهضم كل ما تراه وتسمعه. لكنَّها لا تتكلم.

مع ذلك، تعلمتْ بإتقان هذه اللغة ما دامت تفكر الآن في رأسها باللغة الفرنسيَّة وتتخيل حوارات تُدافع فيها عن نفسها وتُثبت للآخرين أنَّها تُجيد التحدث بها.

ينظر الأطفال الآخرون في المدرسة إليها بشفقة زائفة ممزوجة بالسخرية، فهي الأجنبية التي لا تنطق كلمة واحدة بالفرنسيّة، البكماء، المريخيَّة، المسكينة.

أتذكر بعض عباراتي في أثناء عزلة رأسي. أرى نفسي أتنزّه في باحة المدرسة وحيدة دوماً، وفي فقاعتي دوماً. أُقَلّبُ كومة كلمات في رأسي وأصوغ جملاً وعبارات، وأبدأ الكلام إلى الجمهور وأشرح للجميع أنَّني لست خرساء ولا أجنبيّة ولا مريخيَّة لكنَّني أفضِّل الاحتفاظ بهذه اللغة الجديدة لنفسي.

لكن هذه الجُمل لا تخرج. ليس بعد. لا أريد. لا أتجرأ.

تحتضن الفتاة الصغيرة لغتها الجديدة كدجاجة تحتضن بيوضها. تحتاج إلى هذه المرحلة من الاحتضان البطيء والمنعزل. فمٌ مغلق وانتباهٌ مفرط نَهِمٌ لكلّ كلمة جديدة. والكبار هم مَن يقلقون دوماً:

- مريم لا تتكلم البتة، وباعتباري معلِّمتها يعتريني شيء من القلق. مضت أربعة أشهر، ولا كلمة؛ طفلة مسكينة، إنَّها مصدومة.

- مريم لا تتكلم البتة، إنَّها في حالة سبات وصدّ، وباعتبارنا أهلها نشعر بقلق بالغ.

- لماذا لا تتكلم مريم الفرنسيَّة؟ تعلمتْ ابنتنا بسرعة ولم يعُد بوسعنا الآن إيقافها عن الثرثرة باللغة الفرنسيَّة. عليكم مراجعة طبيب نفسي.

- هيّا انطقي كلمة، أظهري لي أنَّك تعرفين التحدث بالفرنسيَّة. إرضاءً لي.

- ستقتلنا هذه الطفلة! إضافة إلى رسومها المرعبة وصرخاتها العصبيّة في الليل ورفضها الطعام في مطعم المدرسة، ها هي ترفض الكلام. لكن أيّ مستقبل ينتظرها؟

لكنَّها تصمت وتسخر من قلق الكبار المعذّبين. تلجأ إلى حجرتها وتكتب كلّ كلمة تعلّمتها خفية وتكرِّرها بهدوء. خاصة أنَّ أحداً لن يسمعها ولن يكشف سرّها.

إنَّني مشعوذة تُحَضِّرُ لغةً جديدةً ولا أريدُ أن يستعجلني أحد. وقريباً سألدُ لغتي الفرنسيَّة كما يولد طفل، أعرف ذلك، سأفعل هذا

عندما أكون جاهزة. فاللغة تُشَكِّلُ في فقاعتي السريّة، في عالمي الداخلي، مشيمتي الخاصة.

نجلس إلى المائدة. ثمة شيء يُقلقني. في المدرسة، قال لي طفل «خنزيرة». لم أعرف ما تعنيه هذه الكلمة. شعرتُ بنوع من السخرية في صوته. أُخبر أهلي بذلك. لا يعرفون أيضاً ما تعنيه هذه الكلمة. نأخذ قاموس فرنسي-فارسي. ينفجر أبي ضاحكاً، ويعطينا الترجمة. تبدأ أمّي بالضَّحك أيضاً. أما أنا فلم يُضحكني ذلك البتة. لقد نعتني بالخنزيرة ولم أفهم الشتيمة وحدث هذا أمام جميع أطفال المدرسة. كم من الوقت سأبقى بلا صوت ودون أن أردّ على التهكمات اللاذعة التي يوجِّهها لي هؤلاء المتوحشون؟

إنَّه صباح يوم الأحد. وكما في صباح كلّ يوم أحد، كنّا نتناول الإفطار كعائلة، وقد حضَّر والدي البيض المسلوق والشاي. وكان التلفاز يبثّ أحد أفلام الرسوم المتحركة التي أحبها: المفتش غادجيت.

فجأة، جاءني المخاض: ولدتُ لغتي الفرنسيَّة. ورحتُ أتكلم اللغة الفرنسيَّة دون توقّف بحماسة وسرعة فائقة.

قلتُ إنَّني أحبُّ حبّاً جماً المفتش غادجيت، وحكيتُ لأهلي عن نهاري السابق، فقلتُ لهم إنَّني لا أحبُّ الرياضيّات، وأنَّ إحدى فتيات الصف تخابَثت معي بشكلٍ خاص، وأن شَعر السيِّدة بيري مضحك، وأنَّني أتمنى لو أنَّ مدرستي بجانب المنزل، وأنَّني أحبُّ

الإملاء، وأنَّ الأولاد يسخرون أحياناً من ملابسي. خرج كلّ هذا كيفما اتفق بارتباك هذياني وأنا أنتقل من موضوع إلى آخر على مرأى من عيون أهلي المذهولة الذين راحوا يحدّقون بي وأفواههم فاغرة.

كانت الكلمات تتعجّل الخروج، وبنفاد صبر، وقد حدث ذلك في الشقة الصغيرة، وراحت تُحلّق وترقص وتصطدم بالأثاث وتنطلق من فمي كالسهام وتصيب السقف والجدران، وتدور حول نفسها وقد ارتاحت لأنَّها تحرّرت من فقاعتي الداخلية، وابتهجتْ لأنها استطاعت أخيراً التواصل مع الآخرين. امتلأ الفضاء كلَّه بكلماتي الفرنسيّة.

وطفقتْ أمّي تضحك والدموع تطفر من عينيها ولم يستطِع أبي أن يضع شوكته التي يمسكها على بعد سنتيمترين من فمه، كان متخثراً عند هذه الحركة، كأنَّه لقطة في صورة، وفي نهاية المطاف تركها تسقط وهتف متعجباً.

- إنَّها تتكلم! ابنتي تتكلم الفرنسيّة أخيراً. فرنسيتك طليقه على نحوٍ لا يُصدّق! تكلمي أيضاً، لو سمحتِ، أريد أن أسمعك أيضاً تتكلمين هذه اللغة.

أصبحَت الفتاة التي لقّبناها بالبكماء بعد ذلك تلميذة ثرثارة جداً حتى إنّ جميع أساتذتها صاروا يكتبون كلّ فصل «تنبيه بسبب الثرثرة» في خانة التقييمات في بياناتهم المدرسيَّة، من الصف الأول حتى نهاية المرحلة الثانوية.

أنا، لا آكل

أكره مطعم المدرسة. أكره تجميع الأطفال في مكان واحد. أكره هذه الفوضى أثناء الوجبة. أكره ضجيجهم وصيحاتهم، أكره طريقتهم في تناول الطعام. أكره الوجبات التي يقدِّمونها لنا، فليس لها أيّ طعم أحياناً، ولها طعم مقزّز أحياناً أخرى. أريد طبخ أمي وجدّتي. أريد أطباقاً إيرانية؛ أريد رز بسمتي. لن ألمس هذا الرز الكبير القاسي والجاف وله طعم الماء. وما يقزّزني أكثر هو اللحم. يكاد يكون نيئاً وغير مطبوخ. قطعة لحمٍ كبيرة تسبح بدمها، يلقونها لي هكذا في صحن. حين رأيتها أولٍ مرة شعرتُ بالخوف. لقد وقعتُ إذاً بين أيدي البرابرة. أو قطعة لحم مسقسقة بالدهن، كما في هذا الطبق من الجزر غير الناضج مع قطعة لحم ثور بورغوني، الطبق الأكثر إثارة للاشمئزاز. في المطبخ الإيراني يقطعونه بعناية إلى قطع صغيرة، ويطهونه على مهل مع الصلصة والخضار والبهارات والأعشاب، أو يمزجونه مع البصل ويطبخونه بشكلِ كبابٍ على الفحم. يصبح شهيّاً ويذوب تحت اللسان. يتبّلونه ويتركونه وقتاً ليعطوه هذا الطَعْم.

وأيضاً يستغرق الطعام في مطعم المدرسة وقتاً طويلاً. في البداية المقبلات، ثم الوجبة الرئيسة، وبعدها الألبان، وأخيراً الفاكهة. تبدو لي كلّ مرحلة بلا نهاية. أيّ نفاقٍ من أجل شيء تافه. حين تطبخ أمي، هناك فقط طبق واحد مع اللبن أو السلطة، وهو لذيذ ويشبعني تماماً حتى الوجبة التالية. إنَّه طيب، سريعٌ وفعّالٌ. تخطر ببالي وجبة غورميه سبزي اللذيذة: يخنة بالكزبرة والبقدونس والسبانخ والأعشاب الإيرانية المفرومة والفاصولياء الحمراء التي تُطهى معها قطع من لحم الخروف والليمون المجفف، وإلى جانبها رز بسمتي المطيَّب بالزعفران. وهناك طبق آخر أحبّه اسمه كال غونجسكي، ويعني «رؤوس العصافير» بالفارسية: يُخلط لحم الثور المفروم مع البصل، وتُصنع منه كريات صغيرة ومن هنا جاء اسمها رؤوس العصافير، وتُقَطَّعْ البطاطا بعد ذلك على شكل كشتبان ويُترك الكلّ ليُطهى في صلصة البندورة اللذيذة بالكركم.

قررتُ ألّا آكل. هو ذاك، نوع من الإضراب عن الطعام. إضرابٌ للاحتجاج. لن أمدّ يدي إلى صحني، حتى لو متُّ. تلحُّ «الآذنات» كما نسميهن أن آكل، لكّنني أرفض بعناد. ينظر الأطفال الآخرون إليّ ويتهامسون فيما بينهم، يتحدّثون بأصوات خافتة عني، الأنذال. أيّاً يكن ما يقولونه، لا يهمّني. لن آكل هنا.

أودُّ لو أختفي من هذا المكان. لا أعرف أين أختبئ، ربما تحت طاولة كبيرة، لكنَّ الجميع سيضحكون ويشيرون إليَّ بأصابعهم. وماذا لو هربتُ من المطعم كما هربتُ من المدرسة في أول يوم. ربما سألتقي جدتي من جديد وقد تُحَضِّر لي طبقاً إيرانيّاً

مغذياً. لكنّني أجهل العقاب المترتب على القيام بذلك، فضلاً عن أنّني أشعر بالشلل التام حين أكون في مطعم المدرسة. ثمة قلقٌ عميق ينتابني، قلقٌ لن يسعني تفسيره لاحقاً. قلقٌ يمنعني عن الحركة وعن فتح فمي لأحشوه بهذه الأطعمة المجهولة والمثيرة للاشمئزاز. ومع أنني قاومت، لكنّهم أجبروني على تناوله طوال عام، لأنَّ أمي لم تكُن قادرة على المجيء لاصطحابي ظُهراً. وفي كلّ صباح، كنتُ أطرح السؤال المصيري ذاته: «ماما، هل يجب أن آكل في مطعم المدرسة اليوم؟» وفي كلّ صباح، نوبات الدموع ذاتها.

انتشر الخبر. وبعد «مريم لا تلعب» و«مريم لا تتكلم»، صارت الآن «مريم لا تأكل». وانهال اللوم عليَّ: وبّختني معلمتي، وحتى عاقبتني ذات يوم مرة أمام جميع التلاميذ وأرغمتني على الجلوس على مقعد فارغ في آخر الباحة، بعيداً عن الجميع، لكنَّني مرئية من الجميع. إنّها عقوبة ملائمة، لأنّني كنتُ أبتعد عن كلّ هذا المضغ الجماعي ولم يكن يهمني أن يعيِّروني بذلك.

ومرة أخرى صرخت بي وهي تُرغمني على ابتلاع جرعة من حساء الجزر. كل العيون الصغيرة على الطاولة صارت مشدودة إليّ. غَصَصْتُ وبكيت. لم أستطِع ذلك. جاءت السيّدة بيري بعد ذلك لتهدِّئ روعي وكلّمتني بلطف، لكن ليس باليد حيلة، فحساء الجزر هذا لن يدخل فمي.

ازداد خبث الآذنات أيضاً. في البداية، كنّ يبدين إصراراً لكي آكل، يدفعهن إلى ذلك نوع من الشفقة حيالي، أمّا الآن فهنَّ يسخرنَ مني كالأطفال الآخرين. يسخرنَ من أصولي. وراحت إحدى

الآذنات تردِّد اللازمة ذاتها: «لكن هذا ليس لحم خنزير، هيَّا كلي». لماذا تقول هذا لي؟ وأخرى قالت: «هل تريدين أن نحضر لك الكسكس؟» لا أعرف حتى ما هو هذا «الكسكس». وواحدة ثالثة تظنّ نفسها أكثر ذكاء: «سنجهز لك كاري، إنَّها وجبة هنديّة، أليس كذلك؟» ويتلَوَّيْنَ ضاحكات مثل طيور الحبش.

كان يسرّ بعض الأطفال أن يجلسوا بجانبي لأنَّه يتاح لهم أن يأكلوا حصتي. الشرهون، فليختنقوا بحصتي من المقبلات أو الفاكهة. وما أكرهه أكثر من أيّ شيء آخر هو الجبنة. إنَّها تفوح برائحة العفن، الجبنة الفرنسية. إنَّها لا تُطاق. أحلم بجبنة الفيتا الإيرانية. بانير إي تبريز البيضاء، نقيَّة وطازجة وليس لها رائحة الجوارب العفنة وليست رخوة ولا سائلة مثل هذا الشيء المقزّز الذي يدعى كاممبير، وإنَّما فقط لها رائحة خفيفة من العنزة أو النعجة، تذوب في الفم. آكل منها كلّ صباح على وجبة الإفطار مع الشاي. أمَّا هؤلاء الفرنسيون فيأكلون الجبن في نهاية الوجبة. هذا لا يهم. فكلّ شيء مضطرب ومقلوب ولا أفهم شيئاً هنا.

الجرذ

إنَّني في الصف. وأشعر برغبة ملحّة للذهاب إلى المرحاض. أرفع يدي بخجل. تأذن لي المعلمة بالكلام. يعتريني شيء من الخجل أن أطلب منها ذلك. أخاف أيضاً أن أرتكب خطأً باللغة الفرنسيّة. سأثير سخرية الطلاب الآخرين، أنا واثقة من ذلك. أطلب منها الإذن بالذهاب إلى المرحاض. تقول لي أن أنتظر ثم تضيف شيئاً ما من قبيل الجرس أو الاستراحة. لستُ متأكدة أنَّني فهمت جيداً. أنتظر لبرهة وأرفع يدي من جديد.

- ماذا هناك أيضاً يا مريم؟
- هل يمكنني الذهاب إلى المرحاض؟
- قلتُ لكِ أنَّ تنتظري قليلاً.

لم أعُد أجرؤ على الإلحاح. هذا سيسيل، أحسُّ بذلك. لن أستطيع أن أتمالك نفسي لوقت أطول. أحاول أيضاً وأنا أضمّ ساقيَّ، لكن الضغط أصبح أقوى ممّا ينبغي. فجأة، أُفْلِتُ كل شيء. تبولتُ في الصف. سائل حار يجري على امتداد ساقي وينقط على الأرض تحت مقعدي بالضبط. تشكّلت بقعة من البول. أصبحتُ مشلولة. يراودني أمل بألّا يراها أحد. جرس الاستراحة يرن. تطلب

المعلمة من التلاميذ أن ينهضوا بهدوء. لكنَّني لم أحرك ساكناً. تسألني زميلتي في الصف عن سبب بقائي جالسة وتتبين أنَّني تبولت في ملابسي. تندّ عنها صرخة قويّة «أوه!» وهي تضع يدها على فمها وتبلغ المعلمة عن ذلك فوراً. إنَّني شاحبة. أريد أن أموت. أوشك على الموت من الخجل. أبدأ في البكاء. تقترب مني ولا تبدو غاضبة، لكن متفاجئة إلى حدٍّ ما.

- أخيراً مريم، حين يكون الأمر مستعجلاً، فينبغي أن تخبريني بذلك.

أشعر بالبؤس. إنَّني فأر يبحث عن ثقب يتوارى فيه.

تطلب مني أن أنتظر هنا. تقود التلاميذ الآخرين إلى الاستراحة ثم تعود حاملة بنطالاً نظيفاً تتبعها آذنة. تساعدني في ارتداء البنطال وتنظِّف الآذنة البول عن الأرض.

ثم تقول لي أن أبقى في الصف خلال فترة الاستراحة. تؤنبني بلطف وتجعلني أفهم أنَّني معاقَبة. لا أقول شيئاً، لم يزل الخجل يشلني. تذهبان.

إنَّني وحيدة في الصف، جالسة على كرسي مرتدية هذا البنطال الأصفر الباهت والقصير جداً بالنسبة إلى مقاسي. أنظر إلى الأمتعة المتفرقة على طاولات زملائي في الصف. أصغي إلى صيحات الأطفال الذين يلعبون في الباحة.

أوه لا! أشعر أنَّني أرغب بالتبوّل مرة أخرى. يعتريني الذعر. لا أعرف إنْ كان يحقّ لي الخروج من الصف. قالت لي: «ابقي هنا خلال الاستراحة» وهي ترفع سبابتها كعلامة تأنيب. وهذه العلامة فهمتها جيداً. أجل، لكنَّني لن أبول مرة أخرى في ثيابي. تباً.

أنهض وأفتح الباب بمنتهى الهدوء، أخرج إلى الممر وأنزل الدرجات. يجب عليَّ أن أجتاز الباحة للذهاب إلى المرحاض. لا أفلح في التقدم خطوة واحدة أخرى. لا أتجرأ على اجتياز الباحة ولا على مواجهة نظرة الأطفال الآخرين وأنا أرتدي هذا البنطال المثير للسخرية. بالتأكيد سيُشيرون إليَّ بأصابعهم هازئين: «انظروا إليها، إنَّها الفتاة التي بالت في الصف، وها هي الآن ترتدي بنطالاً مثيراً للسخرية» بنطال العار، بنطال الفضيحة، بنطال كلّ أؤلئك الذين بالوا في ثيابهم في الصف، وسيتعرّف كل تلاميذ المدرسة إلى هذا البنطال ويعرفون أنَّني تبوّلت في الصف. لا، لا أستطيع اجتياز هذه الباحة. أخاف أيضاً أن تراني معلّمتي وأن تؤنبني ثانية لأنَّني خرجتُ من الصف. لم أعُد أستطيع التقدّم، بينما الباحة لا تبعد أكثر من متر عني. لا يمكنني العبور من فسحة البهو إلى فسحة الباحة. كان يكفي أن أتقدّم بضع خطوات وأن أركض نحو المرحاض سحبة واحدة في الباحة لكنَّني لا أستطيع تجاوز هذه العقبة. تعذِّبني رغبتي في التبول وتضغط على مثانتي. أنظر حولي لأجد مكاناً بعيداً عن الأنظار يمكنني أن أقضي حاجتي فيه. أرى زاوية تحت الدرج، نوع من التجويف يضعون فيه صناديق قمامة كبيرة ومكانس، ومن هنا لن يستطيع أحد رؤيتي بسهولة. أنظر حولي مثل حيوان مطارَد. لا يوجد أحد. لم أعُد أتمالك نفسي وتبولتُ تحت الدرج، مختفية بين المكانس وصناديق القمامة. يسيل بولي فأشعر بالخوف أن يذهب أبعد ممّا ينبغي وأن يراه أحد ويقتفي أثري. أتوقف مباشرة عن التبول. وأنتبه لئلا أمشي فوق البول وأصعد ثانية إلى الصف مثل مذنبة، منبوذة، جرذ صغير قذر.

المغسل

قذفوني في البداية في صف واحد. وبعد بضعة أسابيع ألفيتُ نفسي في صف آخر وأتابع في الوقت نفسه في صفي الأول.

لديَّ إذاً صفّان ومعلمتان، مثلما عندي لغتان وطريقتان في التلفّظ باسمي، وطعمان في فمي، ونغمتان موسيقيتان تطنان في رأسي.

هنالك الصف «العادي» والصف «الخاص».

الصف المسمى خاص يدعى أيضاً «كلان».

كلان: صفّ تمهيدي لغير الناطقين باللغة الفرنسيّة. صف مدرسة ابتدائية محجوز للتلاميذ غير الناطقين بالفرنسيَّة الذين وصلوا حديثاً إلى فرنسا. والهدف من هذا الصف هو دمج التلميذ غير الناطق باللغة الفرنسيّة بالمدرسة. وتلميذ هذا الصف يسجّل أيضاً في صف عادي. إنه قرار وزارة التربية الوطنيَّة.

أكره هذا الصف «الخاص».

مع ذلك، المعلم ظريف جداً. يدعى جوليان. عيناه واسعتان

زرقاوان وشعره أشقر غامق. إنَّه وديع. صبور دوماً ويبتسم معنا. يسوع المسيح في مهنة التعليم. يساعدنا على تحمّل أعباء عدم فهمنا وألمنا. يبذل قصارى جهده طيلة النهار ليعلمنا اللغة الفرنسيَّة. ينتقل لرؤية كلّ طفل، يجلس، يأخذ وقته، يتعرّق، يشرح عشرين مرة الفكرة ذاتها، يجد حيلاً وخدعاً، يرسم، ويخطّ أشكالاً توضيحيَّة ليجعلنا نفهم على نحوٍ أفضل، وحتى حين يرن الجرس، يبقى لإيضاح النقاط الغامضة في الدرس. يقبّلنا حين يودعنا. تلتمع عيناه حين يرى إرادة تلميذ مندفع للعمل.

كنتُ مغرمة به قليلاً. يجب أن أعترف بذلك. فجأة، أضاعف جهودي لأتعلم بسرعة هذه اللغة. لكن في الحقيقة، أرغب أن أتقن اللغة الفرنسيّة بسرعة، لأنَّني أريد أن أترك هذا الصف، رغم حبّي السري لجوليان. سيُحزنني ألّا يعود معلمي لكنَّني أريد الصف العادي. فهذا الصف هو ما يهمني لأنَّه صف الفرنسيين الحقيقيين. أريد أن أصبح مثلهم: عاديّة، طبيعيّة، فرنسيّة. وهناك يحدث كل شيء.

هنا، تفوح رائحة البؤس والإقصاء، يشبه فناءً خلفيّاً، خلفيّة مسرح، مكاناً يخفون فيه ما يشوّه المنظر، ما ينبغي حجبه وعدم إظهاره.

لا أحب هؤلاء الأطفال بنظراتهم الحزينة وأجسادهم المتواضعة. يرتدون ملابس سيئة ويبدون فقراء، وفيهم شيء من الخضوع. وأيضاً يبدون متردّدين، وليس لديهم هيئة واثقة. لا يجيدون الفرنسيّة. بعضهم لا يتقدّم قَيْدَ أنملة، تمنعهم عوائق غامضة.

صف غريب: إنهم مجموعة تائهين يفتقدون الحب. وجدوا أنفسهم ذات صباح على الأرض الفرنسية.

وكلما جاء تلميذ جديد، عليه أن يُعرّف بنفسه وجنسيته. وعموماً، قبل أن أغادر هذا الصف، رأيت جنسيات كثيرة فيه، كالباكستانيين والجزائريين والبولونيين والسنغاليين والأتراك والصينيين والرومانيين والروس والبرتغاليين والكاميرونيين والمصريين والعراقيين والأفغان، وأيضاً، هنالك أنا، الإيرانية.

كنت أعرف أنَّني أشبههم. رغماً عني ورغم امتناعي عن الاعتراف بالواقع، ورغم رفضي الاعتراف بهم كأخوة، إلّا أنهم كانوا أخوة في البؤس والمنفى والحنين وكلّ ما نحمله على كواهلنا المدرسيّة الصغيرة من أعباء نتقاسَمها وعلينا المضيّ قُدُماً بها. كنتُ أشعر أحياناً أنَّنا لا نحمل في حقائبنا المدرسية أقلاماً وقبعات لبّاد وكتباً ودفاتر، وإنما مجموعة حكايات غير مضحكة وكثير من الوجوه المختفية.

وفضلاً عن ذلك، لديهم طريقة غريبة في المشي على درب الحياة: قدم في فرنسا وقدمٌ هناك. دمى مفكَّكة المفاصل. يشبهون أطفالاً كبروا بسرعة فائقة، هرموا قبل الأوان. كانوا يمدّون لي مرآةً لا أريد أن أرى نفسي فيها. لا أريد أن أكون مختلفة. كنتُ أرى شجاً على وجوههم. شجّ أولئك الذين شطرهم المنفى إلى قسمين. كنت أريد أن أمحو هذا الشج وأن أكتب حكايتي بمنتهى الطبيعية والوئام والانسجام الفرنسي.

بعد سنوات أصبحتُ طالبة ماجستير في تعليم اللغة الفرنسيّة للأجانب، وكان لدينا محاضرة حول ترتيبات «الاستقبال» لأولئك الذين نسميهم الأطفال الواصلين حديثاً. كان الموضوع يتعلق بتلك الصفوف المسماة «تمهيديّة» بقصد دمج التلميذ غير الناطق بالفرنسيّة في فضاء اللغة الفرنسيّة ومن حسن الحظ أنَّ مُدَرِّسَتنا كانت نقديّة جداً. فضحت غياب الانفتاح الثقافي، ومخاطر التأقلم ورفض تقبّل الآخر بشكلٍ حقيقي، أيّ ثقافته ومنبته وهويته ولغته. وأملت أن تصبح هذه الترتيبات ذات يوم أماكن استقبال حقيقية وأماكن للتبادل الثقافي في المستقبل.

آنذاك، وأنا أقرأ محاضراتهم أدركتُ أنَّني عانيت من مشروع تطهير واسع. كما لو أنَّه كان ينبغي إخفاء اختلافاتنا ومن ثم البدء بمسحها تماماً. خمس دقائق مخصَّصة للتعريف بالتلميذ غير الناطق بالفرنسيَّة، ويُذْكَرُ فيها لمرة واحدة ووحيدة «أصله» وما عدا ذلك، لا شيء آخر. وحين تنتهي عمليَّة «التنظيف والغسل»، يرسلونه إلى الصف «الحقيقي». صفّ الناطقين بغير الفرنسيَّة أو التنظيف، إنَّه الشيء ذاته. يمحون، يمسحون، يغمروننا في مياه الفرانكفونيّة ليغسلوا ذاكرتنا وهويتنا وحين يصبح كلّ شيء نظيفاً ونقياً والداخل فارغ تماماً، يكافئوننا: أنتَ الآن في المنزل الفرنسي، ومهمتك أن تكون على مستوى المعروف الذي قدّمناه لك. إنَّها طريقة غريبة في تقبُّل الآخر. عقدٌ يُبرم على وجه السرعة بين الضيف و«المُضيف»؛ أقبلُ أن تصبح في منزلك، لكن بشرط أن ترغم نفسك على أن تغدو مثلي. انسَ من أين أتيت، فلم يعُد لهذا أهميّة هنا.

البحث عن اللغة المفقودة

كان يا ما كان

لغة مفقودة في بلد غريب.

كانت غريبة في بلد لا أحد فيه يألف رائحتها. نبرتها ولحنها وإيقاعها المنتحِب والفاتر لم يلامسوا بعد قلوب الناس، وإنَّما يتمتّعون فقط بشيء من الجاذبيّة الغريبة بالنسبة لهم.

تسعى اللغة بأيَّة طريقة لأن تشغل حيزاً، وأن تحصل على القليل من حقوق المواطنة. وبدأتْ على استحياء في الطرقات ببضع كلمات وبضعة أصوات، لكن الكلمات سقطت في أرض الغرابة وعدم الفهم، وحتى أحياناً في مياه السخرية الكاوية.

لم يكُن أحد يتحدّث هذه اللغة. كان عليها أن تستسلم وتتقبّل الأمر. وصار الناطقون القلائل بها الذين يتكلّمونها ويفهمونها يشعرون بشيء من الخجل حيالها، فهُم لا يتجرؤون على التحدّث بها في الشارع بصوتٍ عالٍ. اللغة الغريبة تجعل منهم أجانب وهم لا يرغبون أن يُشار لهم بالبنان.

أحياناً، كانت تحلم بالبلد والزمن الذي كانت فيهما لغة رسميّة، وكان ملايين الأشخاص يستخدمونها، ولم يكُن بوسع أيَّة لغة أخرى منافستها. فشرعيتها كانت تمدّها بالقوة.

هنا، أصبحت مقتصرة على ثلاثة ناطقين فقط: أب وأم وطفلة.

في هذا المكان الضيق الخانق، راحت اللغة تفقد حيويتها وقوتها. ازدادت حساسيّتها شيئاً فشيئاً. أصابها وَهْنُ الأشخاص المرضى الذين يترتّب عليهم إيجاد ملجأ يحميهم من بقية الناس. وراحت تتراجع كلّ يوم أمام قوة الخصم، اللغة الأخرى، اللغة الرسميّة لهذا البلد الجديد. وانتهى بها الحال إلى أن تلوذ في غرفة الخدمة في الطابق السادس من العمارة الباريسيّة، مسجونة بين أربعة جدران ومتوارية في سقيفة تفوح برائحة البؤس.

كان يا ما كان

فتاة صغيرة تبحث عن لغتها.

كانت تبحث عن لغتها وهي تمشي في الشوارع؛ تُصغي بانتباه على أمل أن تلتقط كلمة أو كلمتين مألوفتين؛ تراقب الناس بعينيها السوداوين الواسعتين سعياً منها للتعرّف على موسيقى لغتها الأم.

تتساءل في سرّها: أين ذهبت اللغة الفارسيّة؟

ظنّتْ في البداية أنَّ اللغة تمثِّل دورها. ثم تقول في سرّها إنَّ اللغة الفارسيّة ربما لم توجد قط، وأنَّها عبارة عن حلم. بعد ذلك، غرقت في حزن عميق معتقدة أنَّ اللغة الفارسيّة ماتت كما يموت الأشخاص والحيوانات والنباتات، كما يموت كلّ حيّ على هذه

الأرض. إذاً يمكن للّغة أن تموت؟ لكنَّها تمالكت نفسها وأمِلتْ لبرهة أن تعلّمها لكل الناس، وبهذه الطريقة سيتحدّث بها كلّ الناس من جديد لكنَّها بإزاء جسامة مهمّتها، اعترفت بفشلها وهي محبطة. كيف ستعلِّمها لملايين الناس وهي لا تكاد تعرف كتابتها وقراءتها؟ تلتفت نحو والديها، لربما لديهما الحلّ.

- لماذا لا يتحدث أحد الفارسيّة؟

- لأنَّنا في فرنسا. في فرنسا يتحدثون الفرنسيّة.

- وقبل هذا، أين كنّا؟

- كنّا في إيران. وفي إيران يتحدثون الفارسيّة. لكن ما هذه الأسئلة! أنتِ تعرفين كلّ هذا. ستتعلمين لغة جديدة، اللغة الفرنسيّة.

- وهل ماتت اللغة الفارسيّة؟

- طبعاً لا، لم تمُت، فنحن نتحدّث بها، أنت تلاحظين ذلك جيداً.

- نحن فقط مَن يتحدث بها؟ هذا ليس كثيراً. إذا متنا، فهل ستموت اللغة الفارسية أيضاً؟

- هنالك خمسة وسبعون مليون شخص يتحدثون اللغة الفارسيّة في إيران وإذا أحصينا الجميع في العالم كلّه، هنالك مئة مليون شخص ينطقون بها. لا تقلقي، لن تموت لغتكِ عمّا قريب.

- لماذا جئنا إلى بلدٍ لا أحد فيه يتكلم بها؟

- سبق أن شرحنا لك كلّ هذا: في فرنسا، نحن أحرار، إنَّها بلد ديمقراطي، ونحن اخترنا هذا البلد لأنَّه يجسِّد بالنسبة لنا حريَّة التعبير. ستفهمين ذلك يوماً ما.

هكذا صمتت اللغة الفارسيّة في رأس الفتاة. هربت لغتها.

فضاؤها الوحيد هو السقيفة التي لن تتجرأ أبداً على دعوة رفيقتها في الصف إليها خشية أن يُكتَشَفَ فقرها.

هكذا سكتت اللغة الفارسيّة. تُدرك الفتاة الصغيرة أنَّه لا جدوى من التحدّث بها هنا. فلن يجيبها أحد.

عندئذٍ حدث شيء غريب: ابتلعت لغتها. أغمضَت عينيها والتهمَت لغتها الأم التي انزلقت إلى قاع بطنها، بعيداً جداً، في جوفها، كأنَّها في زاوية نائية من مغارة.

صراع اللغات

- أنا أنتصر. أنا لغة عصر الأنوار ولغة موليير.

- وأنا لغة سنوات طفولتك الأولى.

- لا تُصغي إليها. هذه اللغة هي لغة الماضي الذي لم يعُد موجوداً.

- تَذَكَّرِي تُربتكِ.

- تَعَلَّمِيني وانسي البقية.

- الفارسيّة هي الريشة التي تعزف على أوتار جسدك.

- إنَّها لغة المنفى والتمزّق والعذاب.

- ربما أكون عجوزاً عرجاء لَفَظَتْها الحياة، وقد تكون قرقعة عكازي وساقي الثقيلة التي أجرجرها لا تُحتمل، لكن هذه القرقعة ستلاحقكِ طوال حياتك إن لم تأخذي بيدي.

- انسي هذه العجوز المجنونة المتلعثمة ودعيها تجترّ رطانتها. سأمنحكِ عالماً متكاملاً، عالماً من المعرفة والنجاح.

- وأنا سأمنحك المصالحة والسكينة.

- هذا غير صحيح! ستمنعك من التقدم.

- إنَّني جسر بين موطنيك.
- إنَّها توشك على الموت.
- إنْ نسيتني فإنني لن أنساكِ.
- إنَّها تافهة! خَلاصُك في اللغة الفرنسيَّة.
- أنتِ تحبين الرسم، أليس كذلك؟ اكتبي بريشة قلمكِ حروف أبجديتي: إنَّها تشبه الرسوم.
- أنتِ تحبين القراءة، أليس كذلك؛ نحّي جانباً هذه المنمنمات السخيفة واتبعيني، سأجعلك تجتازين محيطات الأدب.
- سأصمت لكنَّني سأتبعكِ بصمت.
- كوني بجانب المنتصرين. اخرجي من هذه القصص الوهميّة.
- أنا لستُ لغة أمكِ، أنا أمكِ في اللغة.
- أصغي إليَّ: هذا لا يعني شيئاً. أؤكد لكِ أنه ليس إلَّا هذياناً.
- ستعودين إليَّ، إلى حروفي المتماوجة، إلى موسيقاي الهادئة والمنتحبة، إلى شعري أيضاً.
- مَن تحسب نفسها؟ أنتِ لن تعودي إلى أيّ مكان. أنت ستتقدّمين إلى الأمام.
- ستعودين، أعرف ذلك. سأدعكِ الآن لنصركِ البراق في اللغة الفرنسيَّة.

عندئذٍ تخلع اللغة الفرنسيّة معطفها الملكي على الفتاة الصغيرة. تمشيان معاً نحو صرح الحريَّة والمساواة والأخوة العظيم. ترقص

قصاصات ورق فوق رأسيهما: تقارير مدرسيّة مادحة، مباركات مستحقّة، قصائد تصفق وتتطاير بفرح وترافق خطواتهما.

تنظر الفارسيّة إليهما تبتعدان وهي جالسة بانزواء على مقعد. إنَّها امرأة عجوز متألّمة، مُحاطة بعزلة مطبقة، تكنس بطرف عكازها بضعة أوراق وفضلات وأحلام بائدة من الماضي.

لن أتعلم اللغة الفارسيّة

- لا. لا. وألف لا.

- لا بد من ذلك، عليكِ أن تتعلمي اللغة الفارسيّة. لن أطلب منكِ إلَّا ساعة واحدة، وهذا ليس أمراً عظيماً. هيّا اذهبي للبحث عن دفتركِ وكتابك. أسرعي. إرضاءً لأبيكِ.

- لا أريد. أنا في فرنسا وأتحدث الفرنسيّة. لا جدوى من التحدث بالفارسيّة.

- هذه لغتنا، افهمي، إنها جذورك.

- أنا لستُ شجرة، ليس لديَّ جذور. إنَّها لغتكم وليست لغتي.

يتنهد أبي، وتطلب منه أمي أن يدعني وشأني.

أعود إلى ألعابي التي رَتَّبْتُها أمامي بعناية في حلقة وأبدأ تلقينها درساً مثل معلّمتي في المدرسة، بلغتي الفرنسيَّة التي لم تزل مرتبكة ولكنَّني أنوي إجادتها حقاً.

افتحوا دفاتركم. إملاء.

أرى خيبة أمل أبي وأشعر بها. لم يعُد يقول شيئاً. ينهض ويضع

الدفتر وكتاب اللغة الفارسيّة الجديد للصف الأول في الدرج. يُشعل لفافة تبغ.

كنتَ تستبسل للحفاظ على رابط بين بلدك وابنتك. حبلٌ قضمه المنفى، ولم يبقَ منه سوى خيطٍ. وهذا الخيط هو اللغة. لكنَّني لم أعُد أحب هذه اللغة لأنَّها تؤلمني. كنتَ تدرك أنَّه ليس بوسعك إجباري على تعلّمها. لا يمكن إرغام أحدٍ على تعلّم شيء ما، لأنَّه لا جدوى من ذلك. أخذتَ تدركُ بالتدريج أن هذا البلد الجديد سيغيّر ابنتك، وخفتَ أن تغدو غريبة أو الأصحّ أن تصبح غريباً عنها، وأن تفقدَ كلّ ما هو إيراني فيها وأن لا تعود تحترمك لأنَّك حين تفتح فمك لتتحدث باللغة الفرنسيّة ستبدو أحمقَ بأخطائك النحويّة واللفظيّة.

- ما دام الأمر على هذا النحو، لن يتحدّث أحدٌ اللغة الفرنسيّة في هذا المنزل. يجب على الجميع التحدّث بالفارسيّة تحت سقفي.

- وإذا أصرّت ابنتك على التحدث بالفرنسيّة؟

- لن أردّ. وآمركِ أن تحذي حذوي.

- لن تحلّ القوة هذا النزاع. وستكره الفارسيّة. هذا كلّ ما ستكسبه أنتَ.

- أرفضُ أن تنسى لغتها الأم. إنَّها لغتها الأصليّة ولغة آبائها وأجدادها.

- لكنَّنا في فرنسا. لم تتوقف في بداية الأمر عن تكرار هذه العبارة على مسامعنا. نحن في فرنسا، ويجب أن نأكل الكرواسان. نحن في فرنسا ويجب أن نتعلم اللغة الفرنسيّة. نحن في فرنسا

ويجب أن نشرب النبيذ. نحن في فرنسا ويجب أن نحبّ الجبن العفن. نحن في فرنسا، ويجب أن نتصرف كالفرنسيين. وها هي النتيجة، يجب أن يسرّك هذا، فقد اندمجَت الآن حتى إنَّها ترفض أن تتعلم وتتكلّم لغتك.

- ليس هذا ما أردته. يجب أن تتقدّم في ثقافتها المزدوجة وأن تحافظ على لغتها لأنَّها شاءت أم أبَت ستكون على الدوام مزيجاً من الاثنتين.

في البداية، قاومتُ. رحتُ أحدثكَ بالفرنسيّة. لم تكن تردّ بشيء. كنتُ أكرر الجملة نفسها. فتواجهني بالصمت دوماً. حاولتُ بلا حدود أن ألحّ، لكنَّك بقيتَ ترفض الرد. كنّا نبني معاً جداراً بيننا، كلّ واحد منا يضع فيه قرميدته، قرميدتك في اللغة الفارسيّة والجذور وقرميدي في اللغة الفرنسيّة والاندماج. كم من الوقت سيستمر صمتك ومقاومتي، وإلى أين سيمضي هذا الجدار؟

بعد بضعة أسابيع، اتّخذتُ قراري. كنتُ أريد إيلامكَ. ورحتُ أرفض تعلّم قراءة وكتابة الفارسيّة، لكن ربما سيسعُني التحدث بها في المنزل. وتوصّلنا إلى القبول بهذا القانون: اللغة الفارسيّة في المنزل والفرنسية خارجه. وصار لدينا من الآن فصاعداً لغتنا ولغتهم. ونحن وهُم. وصرتُ أنتقل من عالم إلى آخر، من لغة إلى أخرى، وأبدّل أدواري، وأقوم بأعمالِ خفّة كيفما اتفق بين هاتين الهويتين.

أخطاء اللغة الفرنسيّة

بقيتُ طيلة فترة طفولتي ومراهقتي أصلّي لكي يصمت أهلي أمام أصدقائي، بل إنَّني تمنّيت أن أقدّمهما قائلةً: «هذان أبي وأمي، إنَّهما أبكمان للأسف».

أعدَّتْ أمي مائدة شهية، ودعوتُ إحدى صديقاتي في الثانويّة لتناول الطعام في منزلنا، بحسب أصول الضيافة الإيرانيّة.

أُعَرِّفُ إحداهما بالأخرى.

تقول لها أمي بابتسامة عريضة:

- هذه جميلة!

لم تفهم صديقتي. ما حدث قد حدث، والخطأ في اللغة الفرنسيّة قد وقع، والخجل سيطر عليَّ، ويجب أن أصحِّح الموقف ولا أريد أن أصحِّحه أمام صديقتي لكنَّني أشعر أنَّني مضطرة لذلك.

- تريد أمي أن تقول: أنتِ جميلة.

تشكر صديقتي أمي. هي أيضاً، انزعجت.

تكرِّر أمي الجملة الصحيحة وقد احمرّت خجلاً. أشعر بحركة

جسدها الخفيفة إلى الأمام كأنَّها تهمّ بالانحناء، كأنّها تعتذِر عن خطئها، وعن زلّة لسانها في القاعدة الفرنسيّة. تعتريني رغبة جامحة بالهرب.

وحتى اليوم لم أزل أشعر بشيء من الوجل يتصاعد في داخلي حين يتحدثان اللغة الفرنسيّة.

ولم يغادرني قط الخجل الطفوليّ لتلك المرحلة.

- تعالي هنا يا مريم، أحتاجك لكتابة رسالة.

- كلا، كفاني ما كتبت لكم من رسائل بالفرنسيّة. اكتبوها بأنفسكم!

- تعرفين حقّ المعرفة أنَّنا لا نستطيع الكتابة بشكلٍ صحيح باللغة الفرنسيّة، سنرتكب أخطاء إملائيّة. لا تفتعلي المشاكل، كوني لطيفة وتعالي إلى هنا.

يجب أن أكتب كلّ الرسائل الإداريّة: رسائل إلى مديرية حماية اللاجئين وعديمي الجنسيّة، إلى التأمين الصحي والتأمين التكميلي، إلى شركة تأمين السيارة، إلى المصرف، إلى البريد، إلى صندوق المعونة الاجتماعيّة، إلى مكتب التشغيل، إلى مؤسسة الكهرباء، إلى المالك. وأسوأ الرسائل بالنسبة لي هي تلك التي يجب أن أتسوّل فيها مالاً. وسواسي هو: قسم الغرامات، إذ يجب أن أبكي حتى لا أدفع الغرامة، وقسم المطالبات، إذ يجب أن أبكي لأنّني ضحيّة ظلم، وقسم طلبات المعونة الاجتماعية، إذ يجب أن أبكي لأنّنا «البؤساء».

- أسرعي يا مريم، أنا أحتاجك!

أتقدّم وأنا أجرجر قدميّ حتى طاولة المطبخ حيث وضعت فوقها بعناية ورقة بيضاء ورسالة إداريّة وقلم حبر.

تطلب مني أمي أن أحرِّر لها رسالة لعناية مدير ضريبة التلفاز. يجب أن تكون رسالتي مؤثِّرة بما يكفي لانتزاع دمعتين أو ثلاث منه حتى يخفض لنا الضريبة. يا للبؤس! أمقتُ القيام بذلك. يجب أن أجدَ الصيغة المؤثِّرة ويحدث لنا أحياناً أن نضحك لشدّة ما تبدو الرسالة وكأنها كُتبت بقلم كوزيت.

«سيدي. ليس لدى طفلتي الوحيدة سوى تسلية واحدة في هذه الحياة القاسية والبائسة للاجئين السياسيين: إنّه التلفاز...».

نسخة وحيدة من منهاج موجيه

2012 - إيران - مكان ما على الطريق بين طهران ومشهد

إنني في سيارة خالي، نسير نحو الصحراء.

- خالي سمعان، لماذا تعلّمتَ اللغة الفرنسيّة؟

- سأخبركِ كيف التقيتُ اللغة الفرنسيّة. إنَّها قصة ستعجبكِ.

كنتُ سأبلغ التاسعة عشرة من عمري قبيل اعتقالي ببضعة أشهر. كنتُ عند أصدقائي، نتناقش في السياسة كما هي حالنا دوماً في تلك المرحلة، وندخن كثيراً، وفجأة طغت نغمات بيانو على صخب كلماتنا. أرهفتُ السمع ونهضتُ نحو تلك الموسيقى وأصغيتُ إلى المقطوعة كاملة دون أن أفهم كلمة واحدة، وأنا مُنحنٍ فوق جهاز أشرطة الكاسيت القديم. خطر ببالي عندئذٍ أنَّه يوجد فيها شيء ما شاعري ومؤثر في آنٍ معاً. كنتُ مفتوناً. ورحتُ أتساءل ما هذا. فأجابوني أنَّ هذا الشريط جاء من فرنسا وأن الشخص الذي يغنّي يُدعى بريل. تلك الكلمات، تلك الكلمات الفرنسيّة، تلك الأصوات، تلك «الراء» لم أسمَع بمثلهم من قبل، ونبرة الصوت في

كلمة «سعادة» و«قلب»، من أين يأتي كل ذلك؟ تولّدتْ لديَّ رغبة بمعرفة معناها الخفي وفكّ لغزه، وتمنيتُ أن أتكلم هذه اللغة.

تعرفين بقية القصة، اعْتقلتُ وسُجِنْتُ.

تعلمتُ اللغة الفرنسيّة في السجن، ولم يكن ذلك سهلاً لأنه لم يكن يوجد سوى كتابٍ واحد موجَزٍ لتعليم اللغة الفرنسيّة: منهاج موجيه. نسخة واحدة للجميع. ووجدنا حيلة «لطباعته». كان الكتاب الوحيد ينتقل من يدٍ إلى يد. وحين يصل الكتاب إلى يدَي سجين، عليه أن ينسخ بخطّ يده بضع صفحات. وكانت توضَع ورقة داخل الكتاب تشير إلى الصفحات التي نُسخت سابقاً. هذا هو الاتفاق بين جميع متعلّمي اللغة الفرنسية. وعلى هذا النحو رحنا نطبعه بطريقتنا. وبمرور السنين صار لدينا في سجن إيفان نسخاً عديدة من منهاج الموجيه نتداولها سرّاً.

هكذا تعلمتُ الفرنسيّة. كنتُ أريد أن أفهم كلمات أغنية بريل «لا تتركني» التي سمعتها ذات مساء حين لم يكن عمري يتجاوز التسعة عشر عاماً، ورأسي مزدحم بالأحلام، ثم اكتشفتُ أغاني أخرى، وكتباً أيضاً وأصابتني لوثة الأدب الفرنسي وعشقته.

طلب مني بعد ذلك أن أضع قرصاً مضغوطاً وأرفع الصوت. كنتُ أعرف النغمات الموسيقية الأولى. يبدأ خالي بالغناء، وأصاحبه، فقد كنّا نحفظ الكلمات عن ظهر قلب. نغني بأعلى صوتنا ونضحك ونلوّح بأيدينا ونهزّ رأسينا مثل ممثلي الدراما.

لا تتركني

كل شيء يمكن أن يُنسى،

فسبق وأن رحل
نسيان الوقت
والمصاعب
والوقت الضائع...

الهاتف يرن

إنَّها جدتي التي لم تعُد توجد بعد الآن إلّا كصوت. لا أحبّ ذلك. لا أريد أن أكلّمها لأنّني أتألم لسماع صوتها الخافت والضعيف والحزين. كلّ ما هو إيراني يمغص بطني. يناولني أهلي سماعة الهاتف اللاسلكية وأضطرّ لقول بضع كلمات، هي دوماً ذاتها.

- كيف حالك، ماذا تفعلين هناك؟ هل تحبّين مدرستك؟ هل لديك أصدقاء جدد؟ حدّثيني عن أصدقائك. ما هي أسماؤهم؟ هل تتعلمين الفارسيّة كما آمل؟

- نعم يا جدتي، أنا بخير، أجل ولديَّ أصدقاء، وأتعلم الفارسيّة، نعم، خوبام، خوبام، خوبام[1].

لا أحبّ تدخّل أقربائي بإيران في حياتنا هنا. أجده غير لائقٍ ومخلّ بالحياء، يُظهرون لي ما لم يعُد ينبغي إظهاره، ويفرشون تحت

---

(1) خوبام: كلمة فارسيَّة تعني أنا بخير.

نظري سماطاً مغطى بالألعاب المهجورة وقضبان السجن والكتب الممنوعة وشعر المرأة العورة، وغدر غطاء الرأس، وأشياء غير مفهومة في كلّ مكان. ويتدخّلون في كلّ شؤوني ويجب أن أتقبّل ذلك. هكذا، بلا سابق إنذار، يُحيي رنين الهاتف فجأة ذكريات مدفونة هناك، ويجب عليَّ فجأة أن أسمع صوت امرأة أحاطتني بحمايتها، لكن لم يعُد بوسعي لمسها، ويجب أن أتحدّث بهذه اللغة التي أريد إسكاتها لأنَّها تفوح برائحة الحِداد والفراق، وأيضاً ما سبب هذا الإلحاح الدائم لأتعلّمها؟ هذا الأمر بديهي، يجب على المرء أن يتحدّث لغته الأم وأن يحتفظ بِصِلَة مع أصوله وجَذوره المعروفة، هكذا تجري الأمور، وأنتِ تطرحين الكثير من الأسئلة، افتحي دفترك واكتبي حروف الأبجديَّة: ألف، باء، تاء، سين، جيم، شين. «بابا أب داد ماما نان داد»[2].

تنظر الفتاة الصغيرة إلى دفتر المسوّدة الذي رسمت عليه الأحرف الأبجديّة الفارسيّة، كلّ سطر مخصَّص لحرف. أسطر يغطيها اثنان وثلاثون حرفاً كُتِبَتْ بعناية. تأخذ مقصاً وتقصّ كل سطر، وكلّ حرف، واحداً تلو الآخر، تنفصل الأحرف عن السطور وتتأرجَح لبرهة في الفراغ قبل أن تسقط بهدوء على الأرض. تصنع منها كومة وترفع سجادة الغرفة والموكيت، وتحفر الأرض، تُحدثُ

(2) «بابا يعطي الماء، ماما تعطي الخبز»، إحدى الجمل الموجودة في كتب تعلم الفارسيّة في الصف الأول.

حفرةً في الأرض بأصابعها الصغيرة، وتدفن فيها كومة الحروف وتهيل التراب فوقها، ثم تُعيد الموكيت والسجادة، وتستغرق في التأمّل فوق ضريح لغتها الفارسيّة وهي جاثية ومغمضة العينين.

كيف يمكن أن تكون فرنسيّاً؟

باريس الدائرة الثالثة - مقهى في شارع رامبيتو

أشرب البيرة مع إحدى صديقاتي. يتكئ رجل في الخمسين من عمره على طاولة الشراب، يقترب منّا راغباً بالثرثرة.

- ما هي مهنتكما؟
- نحن نُدَرِّسُ اللغة الفرنسيَّة.

ينظر إليّ ويقول:

- لكنَّني كنت أظنّ أن تدريس اللغة الفرنسيّة حكرٌ على الفرنسيين، أليس كذلك؟
- أنا فرنسيّة.

ينفجر ضاحكاً.

رغبتُ أن أضربه وأشتمه وأجعله يلتهم بطاقة هويتي الشخصيّة لكنَّني لم أفعل شيئاً ولم أقُل شيئاً. أنهيتُ قدح البيرة وأنا مطأطئة الرأس.

- لماذا تقدّمين نفسك دوماً كإيرانيّة فقط؟ بانتظام تقريباً، حين تقابلين شخصاً تقولين إنَّك إيرانيّة مع أنَّك فرنسيّة أيضاً. لماذا لا تقولين البتة إنَّك فرنسيّة؟ ألا تجدين هذا غريباً؟

- أنتِ إيرانيّة، هذا كلّ ما في الأمر. أنا أيضاً كبرتُ في فرنسا مثلك لكنَّني لا أعتبر نفسي فرنسياً. إنَّني تركي. هذا واضح. لا أفهم لماذا ترغبين أن تصبحي فرنسيّة. أنتِ ترفضين أصولك الفارسيّة. تشبهين الشباب الأتراك الذين يتحدّثون الإنكليزيّة، ويذهبون إلى ستاربوكس ويقلّدون الغربيين.

- مريم، أريد أن أعرِّفكِ بصديق موسيقي: يدعى بول، وهو فرنسي حقيقي، وليس مثلك، فرنسيَّة مزيَّفة.

- كما ترين، أبي فرنسي وأمي جزائرية، ومع ذلك لا أصرخ على الملأ مثلك أنَّني جزائريَّة. لا أغذي روح الغربة مثلك.

- إنَّه لأمر ساحر أن يتمتع المرء بثقافتين. يا للثراء! تمنيتُ لو أنَّ لي ثقافتين، كان هذا سيجعل ذهني منفتحاً. أشعر أحياناً بعقدة نقص لأنَّني لستُ إلَّا فرنسيَّة.
- عن أيِّ ثراء تتحدثين؟
- لكن في نهاية المطاف ثمة كومة أشياء كُتِبَتْ حول هذا

الموضوع، ولا يمكنك إنكار ذلك، فهناك ثراء حقيقي في امتلاك ثقافتين.

- أنتِ تُضحكينني. لا يوجد أحد يتمنَّى أن يصبح لاجئاً أو مهاجراً فرَّ من بلده.

- أنا لا أتحدَّث عن هذا. أُحَدِّثُك عن الانفتاح الخارق بسبب معرفتك بلغتين على سبيل المثال. هذا رائع!

- هل تعرفين ما يؤول إليه حال إنسان ليس لديه وطن في أيِّ مكان؟ في فرنسا يقولون لي إنني إيرانيَّة وفي إيران يقولون لي إنني فرنسيَّة. هل تريدين ثقافتي المزدوجة؟ خذيها، اذهبي وعيشي معها وحين تعودين أخبريني إن كان هذا «ثراءً جميلاً» أم لا.

أخرج من الكلية مشوَّشة، تعتريني رغبة بالصراخ وتحطيم كلّ شيء. أنزل شارع فيكتور-كوزان، أمرّ أمام تمثال مونتاني، ألمس بسرعة طرف حذائه، اللامع والذهبي في ذلك المكان. أتوقَّف أمام الحديقة الصغيرة وأرى جدتي معصومة جالسة على مقعد. أراها بجلاء. تنظر إليّ وتدعوني للجلوس.

أجلس بجانبها. تمسك يدي وتطبع قبلةً عليها.

يتلاشى كلّ غضبي ويُخلي المكان لتعبٍ هائل.

- تصالحي يا مريم مع ثقافتكِ وتصالحي مع نفسك.

- لستُ في حربٍ مع ذاتي، إنني غاضبة من أولئك المرائين الذين ينكأون الجراح. يغرسون إصبعهم في جرحي بلباقةٍ وتَسَامُحٍ وابتسامة ودّية. وهم لا يفهمون شيئاً. إنهم جميعاً عنصريون.

- مريم، أنتِ لن تقاومي شيئاً بالحقد والغضب.

- أنا أغار من هويتهم. يبدون في غاية الثقة. لن يسعني أبداً أن أضع قدمي على الرصيف الباريسي بهذا القدر من الطمأنينة. إنَّني أتأرجح طوال الوقت بين ضفتين.

- افتحي قبضتك. انظري إليَّ: افتحي قبضتك. ولا تنسي أمراً ثانيّاً سأبوح لكِ به: لا تهدمي ما هو في متناول يدك.

- ماذا يعني هذا؟ لا أفهم.

- أنتِ تفهمين جيداً يا حفيدتي الصغيرة العزيزة. افتحي قبضتك ولا تهدمي شيئاً في متناول يدك.

أنظر إلى يدها المتغضِّنة ذات العروق البارزة، وأظافرها الجميلة المطلية دوماً بطلاء الأظافر. تفتح أصابعها بهدوءٍ أمام عيني وتبسط القبضة المتشنجة، وتتفتح مثل وردة وتمدّ يدها لي.

أضع يدي في كفها. تصافحني بحرارة.

إنَّني وحيدة على هذا المقعد. اختفت جدتي معصومة. تقترب الحمامات من المقعد باحثةً عن فتات الخبز فأطردها بقدمي. فَتْحُ القبضة. عدمُ هَدم ما هو في متناول اليد. أفكِّر ثانية في فيلم الأخوة تافياني حيث يعود شبح الأم للظهور في بيت مسقط الرأس وتشير لابنها بقبضتها المضمومة وتقول له إنَّ العيش لا يكون بهذه الطريقة، وإنَّه لا يمكننا العيش بقبضة مضمومة. لماذا أنا بحاجة دوماً للدفاع عن نفسي؟

أعاين قبضتي، أفتحها وأضمها.

«لا تهدمي ما هو في متناول يدك».

وترى الفتاة الشابة من جديد عيني عباس اللامعتين وخفّ

البلاستيك الموضوع على طاولة الصالون، والحجر المنقوش عليه اسمها، وابتسامة خالها القسريَّة عبر زجاج حاجز السجن، وتسمع صوت نوشابي، وترى أبويها مقرفصين في الحديقة وهما يدفنان كتبها، ووجه جدتها الغاضب، ونوباتها العصبية حين أرغموها أن تَهِبَ ألعابها، والخوف في عيون أبويها، والعصي الموتدة بمسامير، وجواز السفر في يد الشرطي، والأم الحامل التي تقفز، والأب الواقف في المحطة الأخيرة في أورلي، وتتلاحق الصور أمامها في حلقة، وكلمة واحدة تتكرَّر، كلمتها هي، لا يمكن شرحها، قناعٌ ملتصق بالبشرة، تلك الكلمة التي تغلِّف جميع الكلمات الأخرى وتهيمن عليها: المنفيَّة.

ذاكرتي الطفوليّة

أرى من جديد.

أصابع أم جدتي المجعّدة والكسيحة بسبب تهتّك مفاصلها وهي في سن الثامنة والتسعين حين كانت تبحث عن الشيبس في قلب كيس مَدَدْتُه نحوها وأنا في سن الرابعة.

كلّ تلك الأسماك الحمراء التي ضحّينا بها في سبيل إله مجهول في نافورة جدتي وسط حديقتها، مع أبناء وبنات عمي، ثم دفنّاها باحتفاليّة بحسب طقس مأتمي ابتكرناه وتفاخرنا به.

قطع السكاكر التي يقدِّمها والد جدي خفية، والأغاني التي غناها لي وهو راكع على ركبتيه يقلّد عَدْوَ الحصان، ولحيته الواخزة والمشعّثة التي ألمسها بحذر بأطراف أصابعي، كأنَّني ألمس قنفذاً غافياً ويمكن أن يستيقظ في أي لحظة. أحياناً كان ينفخ خده وحين ألمسه يزفر الهواء مُصدراً صوتاً قويّاً وأنا أصرخ.

شراب الكرز المجمّد الذي تُحْضِره جدتي إلى الصالون الواسع ذي الستائر المنسدلة قبل فترة القيلولة، وصوت قطع الثلج في الكأس الزجاجيّة عندما يحرّكون الشراب المترسّب في قاع الكأس بملعقة فضيّة كبيرة.

حرارة الصيف الحارقة في طهران، والإسفلت الذي أحرَق قدمي عندما كنت في سن الثانية من عمري حين تدحرجت في الحديقة في عزّ الظهيرة. ولم تواسِني دموعي المالحة التي حفرتْ أخاديد على امتداد وجنتيّ.

برودة شمال إيران حين كنّا نذهب لنتنسّم الصيف في فيلا، أزهار الأرطنسية الورديّة والزرقاء في الحديقة التي كانت تعلقها أمي في شعري، وخشيَة أن تسقط، كنتُ أنتبه لكل حركة من حركاتي، وأُحرِّك جسدي ببطء مُبَالَغ يُضْحِكُ أهلي.

بحر قزوين اللزج والملوّث الذي كان يجعل بشرتنا كجلد السمك، لزجة وبراقة. الحمّامات الساخنة التي كانت أمي خلالها تفرك بشرتي بنشاط وهي تستنكر استحمامنا في هذا الماء القذر.

شارعنا المقفر في فترة ما بعد الظهيرة خلال شهر أغسطس؛ حيث يسترسل الهواء والغبار في رقصتهما الدائريّة اليوميّة. يسود السأم والتعب في تلك الساعات الجوفاء والحارقة لأنَّه لا يوجد شيء لنفعله خلالها.

ثمار الكاكي الناضجة التي أقطفها من حديقة عمّتي وأعصرها حتى ينفجر لبّها الدبق وأحببتُ حبّاً جماً الطعم اللاذع الذي كانت تتركه بعض الثمار غير الناضجة على لساني.

الثلج الذي يتساقط طيلة الشتاء فوق جبال الألبورز، فتغدو حديقتنا بيضاء تماماً، كنت أتسلى بترك بصماتي في كلّ مكان. وأدمغ أصغر مكان بيدي وقدمي.

صبيان الحي الذي يأتون للّعب في منزلي. أنا الملكة المستبدّة وهم خدمي المساكين. وكان يحدث لي أحياناً أن أضربهم بعنف شديد وسط خيبة أمل أهلي الكبيرة الذين كانوا يرون في ذلك فورات إمبريالية مباغته لم تُسْتَأصل مني.

أوراق الخريف المتساقطة التي كنت ألتقطها لجدتي في طريقها، رائحة عفنها ورائحة الرطوبة والتراب المبلل. كنت أرميها عند قدميها كقربان، كنذير للموت الذي ينتظرنا، وكنتُ أجد أنّ لون شعرها هو لون الأوراق نفسه.

السن اللبنيّة الأولى التي اقتُلعت قبل أن تسقط لوحدها، بواسطة خيط مربوط بقبضة الباب. خالي البكر (هو نفسه مَن صفع أمي حين أرادت التظاهر) ضربَ بقوّة قبضة الباب واقتلعَ السن مع ألمٍ حادّ ثم عرضه عليّ مع ابتسامة ارتياح على وجهه: كان يهتزّ أمام عيني وهو معلّق بخيط. انهمرت دموعي لساعات وأنا متكوِّرة في حضن جدتي،

وطيلة يومين أو ثلاثة أيام رحتُ أفرّ من عمي المجنون حين أسمع صوته أو خطواته في المنزل.

الصوص الذي طاردته في قرية شمال إيران. أثناء ركضه للفرار من مخالبي، مشى فوق جمرٍ لم ينطفئ، واحترقت قائمتاه. لُمْتُ نفسي إلى درجة أني انزويت طيلة النهار في غرفة مظلمة كنوع من العقوبة ورفضتُ أن أتناول أيّ طعام.

منتزه لالي الذي يبعد عن بيت جدتي بضعة أمتار فقط. كان شقيق أمي الأصغر وعمره آنذاك سبعة عشر عاماً يصحبني إليه مرات عديدة في الأسبوع. كان يدخن لفافة تبغ إثر أخرى وعيناه مخضلتان، مخضلتان بفيض من الإحساس بالحياة. كان يغمرني بالقبلات ويحملني على كتفيه. ويشتري لي كلّ ما أريده. كنت أعود من هناك وأصابعي دبقة بسبب السكر والبوظة وفمي ملوث بأصبغة المصاص الأحمر والأخضر، وأنا شبعانة وراضية.

النزهات في السيارة مع خالي سمعان في شوارع طهران، عند حلول المساء. أضواء اللافتات الوامضة، الحياة الليلية الصاخبة وراء زجاج السيارة الممزوجة بموسيقى رولينغ ستون التي كان يسمعها خالي بحماسة خلال تلك المرحلة. كان يتحدّث بلا توقف ويعلّق على كلّ ما يراه. كان ذلك سينما خاصة بي، وأنا جالسة على ركبتي أمي بشكل مريح، والصور تتوالى في الخارج وخالي يعلّق بصوت جهوري كما في فيلم وثائقي.

الصوت العذب لسبحة جدّتي والدة أبي. كانوا ينادونها ماما عزيزة. امرأة تقيّة جداً تسبِّح بهدوء، وبشغف تقريباً، بسبحتها حين تصلّي. تتوجه إلى الله بكلماتها الغامضة والهامسة، ووجهها هادئ، ولطيف، وعيناها مغمضتان، وحاجباها مقطبان، وحجابٌ مزخرف يغطي شعرها الطويل الأشيب. كنتُ أراقبها وأنا واقفة على عتبة الباب دون أن أجرؤ على الدخول، حابسة أنفاسي لئلا أزعجها.

جسد ابنة عمي البكر الرشيق التي تتخطّر في مشيتها على أنغام الموسيقى الشعبيّة الإيرانية في صالوننا، وشعرها الكثيف الذي يتطاير في الهواء وابتسامتها المُترعَة بالوعود، وجمالها المتغطرس الذي تُبديه لي أثناء الرقص.

ألعابنا الطفوليّة مساءً وحتى ساعة متأخرة في الحديقة مع أولاد وبنات عمي ومع جيراني وجاراتي رغم تهديد القنابل ودوي صفارات الإنذار. كانت الحياة تستمرّ على الدوام، مهما حدث. كانوا يسخرون علناً من رماة القنابل الذين يتأهّبون للموت على الجبهة العراقيّة.

جدي الذي كانت لديه عادة سيئة وهي أنه ينام في أيّ مكان في المنزل، ويشكِّل حاجزاً لا يمكن اجتيازه. وسط الصالون حين يكون الضيوف على وشك الوصول؛ وأحياناً وسط الممرّ أو أمام المدخل: عندئذٍ يجب أن نتخطى الجبل. لكن الأخطر حين يقع اختياره على أرض الحديقة، كان ذلك يثير غضبنا، نحن الأولاد، لأنّ فسحة الحديقة مقدَّسة بالنسبة لنا، فهي ملعبنا، وجسد جدي يمنع أيّ تنقّل؛ كان جسده الغافي يُخْمد كلّ حماسة متخيّلة.

رائحة الحلاوة التي يحضّرونها من المطبخ لأجل الموتى. يَحملونها إلى قبر جدتي والدة أمي، يوم الجمعة المقدّس ليأكلوها هناك. اللقمات الساخنة في المقلاة، نختطفها بأصابعنا أنا وأبناء عمي، خفية، وتعلو القهقهات عندما يحرق أحدنا نفسه.

ابن عمي أوميد الذي كنتُ أحبّ أن أحمله بين ذراعي وكان يكره أن يُحمل. كان يستسلم لي لبضعة دقائق، على الأرجح كي يرضيني، ثم يبدأ في البكاء، لكنّني أنا المغامِرَة، أقاوم حتى تنتابه نوبة صراخ غاضبة فأتركه.

جارتي سحر التي كانت فقيرة جداً وتأتي لتلعب في منزلنا، كانت تلمس ألعابي كأنها كنوز نادرة. كنتُ أعيرها لها، وأنا متباهية بأملاكي وسعيدة بما لدي. ولم يداخلني شك ولو للحظة واحدة بأنَّ أملاكي قد تُنتَزَع مني عمّا قريب.

أعياد ميلادي التي كانت تجعل مني أميرة حقيقية. الشموع التي أنفخ عليها، السنوات المنصرمة التي احتفلتُ بمرورها على مرأى من عائلتي المجتمعة، أناشيد أبي وأخيه، وهما يعزفان على آلتَي التار والسانتور الموسيقيتين ويمتزج صوتهما بأصوات المتظاهرين والقنابل.

صفحات كتبي الطفوليّة التي تُقَلِّبُها أصابع جدتي على مرأى من عينيّ المذهولتين واللامعتين، عيناي المندهشتان من سحر القصص

الخرافيّة، وجمال الكلمات المتراصة، والعوالم التي كانت تتدفّق في عالمي.

أصابع أمي التي تشكّل لقيمات الرز المخلوطة بمرقة التوابل وتحملها إلى فمي. كنت أحبّ أن تُطعمني بيدها وليس بأدوات المائدة. كنت ألعق أصابعها وأحياناً أرغب أن ألعق يدها ثم ذراعها ثم أن ألعقها بقدر حبي الغامر لها في تلك اللحظة.

أبي يجلس القرفصاء في مرآبه، يطرق، يصقل أو يلحِّم مادة ما، ولفافة تبغ في فمه ويجيب بغموض عن أسئلتي، وهو مستغرق تماماً في عمله.

في نهاية شارعنا في طهران، كانت توجد مدرسة أطفال. في باحتها ثمة شجرة بلوط ضخمة ومعمِّرة تحرس الصغار. تبدو أغصانها كأذرع تغطي وتحمي الخطوات الأولى للتلاميذ على درب الحياة.

هذه الشذرات الأولى من حياتي شكلتْ، واحدة إثر أخرى، وعيي، وتمثِّل اليوم أثمن ما لديّ، طفولتي. ذات يوم، بتروها، واقتلعوها ورموها في حفرة الماضي، في منطقة لا يمكن الوصول إليها. لهذا أتساءل أحياناً إنْ كان كلّ ذلك قد وُجِدَ.

أبحث عن شجرة بلوط ضخمة في باحة المدرسة لترعاني.

الولادة الثالثة

«الأكثر حكمة هو الزمن لأنه يكشف كل شيء».

طاليس

كان يا ما كان

فتاة وأبوها في حقل قمح لامع. كان الأب يعمل في الأرض ويعتمر قبعة من القشّ على رأسه. وكانت لحيته البيضاء التي جعلتها الشمس ذهبيَّة تطوّق فمه. بشرته متشقِّقة كالأرض التي يقلِّبها بيديه القويتين والضخمتين اللتين تسرح فيهما أوردة أرجوانيَّة تشبه الأنهار. عندما تراه الفتاة من بعيد، وهو في الحقل يرفع ويخفض ذراعيه في الريح، تخال أنَّها ترى شجرة راسخة بقوة. غالباً ما ظلّت لساعات تتأمّل هذا الشبح البعيد وتتخيل أنَّ والدها قد استحال إلى شجرة إلى الأبد. ويتراءى لها أنَّها تجلس عند جذعها، وتداعب اللحاء، وتروي له أشياء عن الحياة بلُغة لم يعد أحد يتحدّث بها إلَّا هو.

أراد والدها في أحد الأيام أن يعلِّمها القراءة والكتابة بهذه اللغة. اصطحبها إلى وسط هذا الحقل وطلب منها أن تكون عاقلة ومنتبهة. لم تزل كلماته تتصادى في أذنها.

- اسمعيني جيداً يا ابنتي. يتطلب تَعَلُّمُ لغةٍ جديدة بَذْلَ جهدٍ، ويحتاج إلى صبرٍ وجدّ. سأعلمكِ لغةً ستموت إن أنت نسيتها يوماً.

يجب أن تتعلميها وأن تعلِّميها بدورك، وهكذا ستعيش وستستمر على ألسنة الناس وفي رؤوسهم وقلوبهم.

لم تفهم كلماته ولم تحب صوته الجهوري ولا الحزن في عينيه. كان يُفرحها أن تتعلم القراءة والكتابة لكنَّها تدرك أنَّه لا يوجد أي شيء مسلٍّ في ذلك. كان عليها أن تنقذ من الموت لغة محتضرة. وكان هذا حملاً ثقيلاً: ستكون كلّ كلمة تتعلّمها حجراً إضافيّاً على كاهلها، وستنتهي هذه الأحجار إلى تحطيمها.

لذلك شعرت بالخوف ورفضت أن تتعلم ووضعت على فمها قفلاً حديدياً ضخماً.

تَفَهَّمَ الأب خوف ابنته ورفضها، وطأطأ رأسه وعاد إلى عمله في الأرض دون أن يتفوه بأيّة كلمة.

تتذكر وتندم.

تفهم الآن معنى كلماته، وتفهم صوته الجهوري، وتفهم الحزن في عينيه. لكن الندم يهمس لها بدهاء في أذنها: لقد فات الأوان.

بعد بضع سنوات، تعلَّمت لغة أخرى في المدرسة. كانت هذه اللغة الجديدة خفيفة وشديدة الرشاقة. كان تَعَلُّمُها متعةً ولعباً، والتحدث بها ضرورياً لكسب الأصدقاء، والتعرف عليها كان مفخرة ويؤمّن لها مكانة وهويّة في مدرستها وفيما بعد في المجتمع. كانت تجد هذه اللغة طافحة بالفائدة حتى أنّها نسيتْ بسرعة اللغة الأخرى، التي بدأت احتضارها البطيء منذ ذلك الحين.

بعد بضع سنوات، لن يعود بوسعها أن تتبادل أكثر من بضع كلمات مع والدها. وهذا الأخير، حين يسمعها تتكلم هذه اللغة

الجديدة يحملق بعينيه الواسعتين: لم يكن يفهم أيَّة كلمة. أصابه الذهول في البداية ثم شعرَ بالخوف ورفض أن يتعلم هذه اللغة. ووضع مثلها قفلاً حديديّاً ضخماً على فمه.

تفهمت الفتاة بدورها خوف والدها ورفضه ودون أن تتفوه بأيَّة كلمة، التفتت لتتعلم كلمات جديدة وترسم حروفَ أبجديَّة جديدة.

تتذكر وتندم.

تقول في سرها أحياناً أنَّها لو بذلت جهداً لتتعلم لغة والدها، لربما كان هو أيضاً بذل جهداً لتعلّم لغة مدرِّسَتها. لربما، أجل. لكنَّ الندم يهمس بدهاء في أذنها: لن يسعكِ أن تؤكدي ذلك أبداً لأنَّ الأوان فات الآن.

مات والدها بعد بضع سنوات وماتت لغته في اللحظة ذاتها بعد احتضار مديد، هي أيضاً.

وَشَّى الحزنُ ذاته عيني الفتاة، الحزن الذي كان في عيني والدها يوم أراد أن يعلِّمها لغته. تلك اللغة التي ستتمنى لو أنّها تعلَّمتها بقدر ما يخنقها الندم الآن. لذلك عادت إلى وسط هذا الحقل عاقلة ولطيفة مثلما طلب منها والدها قديماً. نظرت إلى الأرض لفترة مديدة وفجأة استولت على يديها نزوة جامحة لا تقاوَم فأخذت أصابعها تحفُر بهيجان تراب حقل القمح. واكتشفت فيما يشبه المعجزة حروفَ أبجديةٍ مدفونة في الأرض، حروفَ أبجديته هو. كان قد دفنها لأجلها، مثل كنزٍ. أمسكَتها برفق بأناملها ووضعتها على فمها واستمتعت وهي مغمضة العينين بطعم هذه اللغة. جمعت الحروف وعثرت من جديد على ذاكرة الكلمات، كلماتهما.

تتذكر وترى والدها وسط حقل القمح المتوهج. يعمل في الأرض فتتخيله وقد استحال إلى شجرة أبديّة. تجلس عند جذعها وتداعب اللحاء. تروي له أشياء عن الحياة بهذه اللغة التي هي وحدها لم تزل تتحدث بها.

العثور على اللغة

2002 - السوربون - مكتبة جورج أسكولي

أتوجّه إلى داخل المكتبة. ثمة حُجرة صغيرة مزدحمة بالكتب والصحف والأوراق. رفوفها تصلُ حتى السقف. إنَّه مكتب المدرّسين، يستقبلون فيه الطلاب بالتناوب. اليوم الاثنين، إنَّه دور السيد ج.ل.ب أستاذ الأدب الفرنسي والأدب المقارن.

أطرق الباب. يَدْعُوني للدخول صوتٌ لطيف يبدو أنَّ حباله الصوتية اهترأت قليلاً كأنَّها تعرَّضتْ للحفّ أكثر ممّا ينبغي. يراودني إحساس أنَّني أدخل إلى كهف المعرفة وفي وسطه يجلس حكيمٌ عجوز كما في المنمنمات الفارسيَّة، لحيَته بيضاء وعيناه باسمتان وغائرتان. لا بد أنَّ عمره ينوف على السبعين عاماً.

يداه مستقرّتان بهدوء فوق المكتب. لا يقول شيئاً. ينظر إليّ مبتسماً. ينتظر. يمكنه الانتظار لساعات دون أن ينزعج. إنَّه رجل غير مستعجلٍ. أشعر بالارتياح مقابله.

- تلقيتُ رفضاً من زملائك خمس مرات. رفضوا الإشراف على

بحثي في الأدب المقارن. أريد العمل على عمر الخيام وصادق هدايات، لم أحدِّد بعد الموضوع تماماً لكنَّني أشعر أنَّه يمكن إجراء مقارنه مهمة بين الاثنين. أجيد التحدث بالفارسيَّة لكنَّني لا أجيد قراءتها وكتابتها. لذلك سأحتاج إلى أستاذ متخصِّص لتطوير مستواي. أجريتُ ترتيبات مع أستاذ لغة فارسيَّة. اعذرني لكنَّ هذا العمل سيكون مربكاً قليلاً وشاقاً. هل تقبل الإشراف على بحثي؟

- بالطبع! يسحرني اقتراحك! هيّا! إنَّني مولع بالأدب الفارسي والعربي، وضعيف جداً باللغة، لكن لا يهم، هيا نكتشف ميداناً جديداً. لم أعُد أطيق بحوثاً من طراز «الفراشات عند بلزاك». هذا رائع لأنَّني أشعر أنَّك ستعلمينني أشياء جديدة.

وقهقه بضحكة صادقة وحرة. كان يشبه طفلاً مبهوراً.

أخرجُ من المكتب وأنا في غاية التأثر. أتصل مباشرة بأستاذ اللغة الفارسيّة.

أضحك في سرّي لفكرة أنَّني سأستأنف هذه الدروس التي رفضتها قبل سبعة عشر عاماً. سيتباهى والدي بنفاذ بصيرته: كما ترين، سبق أن أخبرتُك بذلك حين كنتِ طفلة، كانت رؤيتي صائبة، لكنَّك في تلك الفترة لم تكوني تريدين، كنتِ تتبهرجين، عنيدة كدأبكِ. انظري، ستبدئين من الصفر وأنتِ في سن الثانية والعشرين.

أجل سأبدأ من جديد، لكنَّني لم أعُد الفتاة الصغيرة ذاتها، ولم تعُد اللغة الفارسيَّة ذاتها أيضاً.

وطيلة عام واظبتُ على الذهاب إلى منزل السيد كرماني ثلاث

مرات في الأسبوع في الدائرة العاشرة بباريس، شارع فيك دازير، والمفارقة أنّ شقته كانت تقع بالقرب من مدرستي الابتدائية الأولى. كنت أمرّ من أمامها في كلّ مرة لأذهب إليه.

المصالحة

تجلس امرأة شابة على مقعدٍ مقابل مدرسة ابتدائية. تحدقُ في الباب الكبير الأزرق والعَلَم المعلق فوقه. إنَّها تتأمل وذاكرتها تسافر في الزمن.

ها هي في سن السادسة من عمرها. ترى نفسها من جديد مقابل هذا الباب ذاته، جالسة على المقعد عينه حين هربت من المدرسة وتراءت لها جدّتها. ماءٌ جرى كما يُقال. ماءٌ وريح وغبار. الزمنُ أيامٌ تمضي بعضها إثر الآخر مثل قلادة، الزمنُ غَيَّرَ الفتاة الصغيرة الصامتة والعنيدة إلى امرأة لم تزل عنيدة، لكنَّ لسانها تحرَّر وانطلق.

تشعر بالحزن على تلك السنة الأولى في فرنسا. لكنَّها تشعر أيضاً بفرح خجول يتبدى على وجهها بلطف: فرحُ المصالحة. ها هي أخيراً تنبش جذورها في هذا التراب الذي لم يعُد يتضوّع برائحة الماضي، وإنَّما المستقبل.

يجذب انتباهها صوت غريب. صوت عصا تضرب على الرصيف. تلتفت برأسها وترى امرأة عجوزاً تتقدم نحوها. تغطي

وجهها لكنَّها تتضوع برائحة عطر مألوفة ومطمئنة. تجلس بجانبها على المقعد.

- أخبرتُه بذلك: قلتُ له إنَّك ستعودين إليَّ. وها أنتِ قد عدتِ الآن.

- مَن أنتِ؟

- ألم تعرفينني؟ إنَّني لغتك الأم. انتظرتكِ كلّ هذا الوقت.

تسكعّتُ لسنوات أمام هذه المدرسة، وجلستُ لساعات على هذا المقعد. كنتُ قربكِ في كلّ مراحل دراستك، في الإعدادية والثانويّة. كنتُ أختبئ في زاوية حين كنتِ تكتبين بسرعة صفحات وصفحات في قاعات محاضرات السوربون. وحتى تمشيتُ في كل شارع سكنتِ فيه. تعقَّبتُ خطاكِ وانتظرتكِ عند مخارج الحانات الباريسية العصريَّة، وجلستُ على بُعْدِ مقاعد منكِ في المسارح ودُور السينما وقاعات الموسيقى. تنزهتُ ببطء على جسر الفنون حين كنتِ تقضين ساعات فوقه تقرئين أو تتحدّثين مع أصدقائك الرسامين. حاولتُ أن أحشر نفسي سراً في حياتك، لكن دون أن أفرض عليكِ شيئاً. بل إنَّني شعرت بالسعادة حين قرَّرتِ دراسة الأدب المقارن. وحين اخترتِ هدايات والخيام قفزتُ فرحاً رغم ساقي العرجاء. والحق يُقال إنَّني بكيتُ لأنَّني عرفتُ أنَك وجدتِ الخيط الذي سيقودك إليَّ. سنكون معاً في سلام.

سأذهب الآن، فأنتِ وجدتني، ولم أعُد بحاجة لتعقبك خفيةً.

تنهض المرأة العجوز وتنزلق بخطى هادئة وشبه أثيرية على أرض جادة كلود-فيللفو في الدائرة العاشرة بباريس.

ثم تختفي في زاوية الشارع. تكتشف المرأة الشابة أنَّها نسيت عصاها فوق المقعد. تريد أن تناديها لكن لم يعُد هنالك أيّ أثر للمرأة العجوز.

تراقب العصا، وتشعر أنَّها نسيتها عمداً.

تأخذها معها.

العودة

يوليو 2003 - طهران - مطار الإمام الخميني

إنَّه الإياب العظيم هذا المساء. العودة إلى البلد الأم.

أعود إلى إيران، يداي دبقتان ووشاحٌ على ركبتي.

قبل سبعة عشر عاماً طهران - باريس.

وهذا المساء باريس - طهران.

رحلة معكوسة، عودة إلى الوراء.

أتساءل إن كنت سأعثر على الفتاة الصغيرة ذات السنوات الخمس حيث تركتها.

تُمسك اليدان الدبقتان مفكرة سوداء وقلماً، أحاولُ أن أكتب لأهدِّئ من روعي، لكن هذا لا ينجح. العاطفة هي كرة أضخم وأصلب من أن أستطيع تفتيتها إلى كلمات.

إنَّها قطعة عالقة في منتصف حلقي، فلا هي تنزل ولا هي تصعد.

أطلب كأس ماء من المضيفة المحجَّبة. أشرب. حتى الماء لا يمرّ.

أُغمض عينيَّ وأمسح يديَّ بمعطفي الفضفاض الذي يغطيني من الكتفين حتى القدمين.

أربط وشاحي، أغرس تحته بضع خصلات متمرِّدة، وأتنفس الصعداء سيسير كلّ شيء على ما يرام.

نقطة تفتيش للشرطة. أضغط على جواز سفري بيدي. يخفق قلبي بسرعة. أخاف. سيسير كلّ شيء على ما يرام. ولماذا قد لا يسير على ما يرام؟ حتماً ليس هناك ما يثير القلق.

ينظر الشرطي بإمعان إلى جواز سفري الإيراني. يقلّب صفحاته.

- منذ متى لم تعودي؟
- منذ سبعة عشر عاماً.
- جواز سفرك جديد.
- أجل، حصلتُ عليه منذ فترة وجيزة.
- وقبل ذلك؟ ألم يكن لديك جواز سفر؟
- بلى جواز سفري فرنسي.
- إذاً هاجرتِ من البلد.
- أجل مع أمي.
- في أي عام؟
- عام 1986، ولا أعرف ما يعادلها في التقويم الإيراني.
- لماذا تعودين إليها بعد كلّ هذا الزمن؟
- أريد رؤية عائلتي.
- انتظري هنا.

وغادر مع جواز سفري. أنظر حولي، لا أعرف أحداً. يزداد دبق يديَّ. ويصبح تنفسي لاهثاً ومتقطعاً. سيسير كلّ شيء على ما يرام.

ماما، لماذا أخذ السيّد الملتحي جواز سفرنا؟

يعود الرجل. يختم جواز السفر ويناوله لي.

أتنفس الصعداء. أضع يدي على فمي حتى لا أبكي. سيسير كلّ شيء على ما يرام.

ابنتي، لن يتكرر هذا أبداً، أبداً.

هل سيعرفونني؟

أسمع اسمي.

إنَّه يتذكّرني. من أين تأتي الأصوات؟ لا أدري. إنَّها كثيرة. أبحث وأنظر حولي. تقترب الأصوات. أجتاز الباب الفاصل بين المسافرين وأولئك الذين ينتظرون هنالك لاستقبالهم.

أراكم. أتعرَّف إلى بعض الوجوه. إنَّكم أنتم مَن كنتم تنادونني منذ قليل.

أقفز.

يلتقطني أحدهم ويذهب بي، وتأخذُ أيدٍ حقائبي، يضمّني بقوة،

وأنتقل من جسد إلى جسد، دون أن أرى مَن يعانقني ويحتضنني، يضعون أطفالاً رضعاً ووروداً بين ذراعيّ. أطفالٌ لم أشهد ولادتهم وصاروا بعد الآن أولاد أبناء وبنات عمي. أرى أبناء عمي الشباب يعانقونني، كانوا في سنّ الثانية والثالثة من عمرهم في تلك الفترة. يا إلهي، أصبحوا رجالاً اليوم. أيدٍ تداعب رأسي وخديّ وكتفيّ، ثم يُخلي الأطفال الرضَّع المكان لباقات ورد أخرى وتحلّ عناقات الراشدين مكان الأزهار وأستسلم لموجة الحنان التي تغمرني.

أتعرف على عمتي، العمّة عزيز. تبكي دموعاً حارة. يغلّفني جسدها كأنَّه قطن دافئ.

أرى أيضاً وجه عمي سمعان بين الحشد، عمي الذي أمضى ثماني سنوات في السجن، يقترب مني فأقفز بين ذراعيه. لا يقول شيئاً، يأخذني من يدي، يريد أن يريني شيئاً ما، يبتعد الجمع قليلاً فأراكِ.

أنتِ هنا.

تجلسين بوقار وتضعين عكازيك على كرسي بجانبك. عقدتِ على رأسك الجميل وشاحاً أخضر فاتح وارتديتِ معطفاً طويلاً بلون أزرق بحري. ترينني. تتلاقى نظراتنا أخيراً بعد كلّ هذا الزمن.

تبتسمين لي وعيناك مغرورقتان بالدموع وعيناي تعاندان البكاء.

تريدين النهوض فيهرع ابن عمي البكر ليساعدكِ. تُبعِدينه بعكازك، وتقولين له بنبرة حازمة: «ابتعد، لستُ بحاجة إلى أحد، لم

أرَ حفيدتي الأولى منذ سبعة عشر عاماً، سافرتْ لتعود إلى هنا، وهذا المساء سأنهض لأجلها، سأنهض لوحدي دون مساعدة أحد، وحتى دون العكازين».

لا أحرِّك ساكناً، أنظر إليكِ تنهضين، أبيَّة وجميلة كدأبكِ دائماً. تشعرين بالألم لكنك تفعلين ذلك بهدوء وبكثير من المشقة. ترتعش ساقاكِ وتحاول يدك أن تتشبث بشيء ما في الفراغ. لكنك تفعلين ذلك، إنَّك عنيدة مثل حفيدتك.

وها أنتِ تقفين أمامي. تمثالٌ راسخٌ، لن يسَع أحد أن يقلبكِ في هذه اللحظة لفرط قوتك.

أقتربُ منك بخطى وئيدة، أخافُ أن أحطمكِ وأُفقدكِ توازنك الهش الذي تقفين عليه. أخاف أيضاً أن تختفين بضربة عصا سحريَّة كما في الماضي.

أخيراً، أحتضنكِ بين ذراعي. أدفن رأسي في عنقك وأستنشق طفولتي. ها نحن الاثنتان واقفتان، وأنتِ مَن تسندينني.

العاشق

يقطن ابن عمي في منزل كبير وسط طهران ويُنظم هذا المساء «حفلة» كبيرة ليُثبت لي أنَّ لدى شباب طهران حسّ رفيع بالاحتفال ولا يحسدون الشباب الغربيين على شيء. غطوا زجاج نوافذ المنزل بورق الألمنيوم حتى لا يرى أحد من الخارج ما يجري في الداخل. لم يمرّ قط من تحت ناظري هذا العدد من زجاجات الكحول ومن حبوب الهلوسة، وهذا القدر من الكوكايين. وبدوتُ في نهاية المطاف في غاية التعقُّل مقارَنَة بهم.

التقيتُه في ذلك المساء.

حاجبان كثّان يحرسان نظرته الجريئة والجامحة. حاجبان إيرانيان نقيان.

عيناه بلون الأرض المحروقة والقطران، تلتمعان ببريق الليل.

بشرته داكنة تروي أكداساً من القصص: موشومة بالكثير من الندوب.

طعنات سكاكين، شفرات حلاقة، حروق، قطع زجاج، جروح. كم أهنتَ جسدك.

حوادث دراجات ناريَّة، حوادث سيارات، تصفية حسابات، مشاجرات، رغبة بالموت، رغبة باقتحام المخاطر، مغازلة الموت، أحكام بالسجن، تشويهات ذاتية. كنتَ تكفِّر عن أخطائكَ.

لن أستطيع أن أغني لك **نشيد الأناشيد**. لا، حبيبي ليس «غضاً وقرمزياً»، ورأسه ليس من ذهب، وليست وجنتاه «رياض الطيب» ولا «أجمتا ورد عطرة»، وليست بطنه «قطعة عاج مكسوّة بالياقوت»، ربما ساقاه «عمودان من الرخام» لكنَّهما ليستا منتصبتين فوق «قاعدة من الذهب الصافي».

حبيبي لديه بشرة مكلومة بألف جرح.

رأسه من الفحم تملأه الحدبات. لبشرته قساوة الجلد وبريق البرونز. خداه مرصَّعان بحزوز ورديَّة. جذعه أرض محروقة. تعتمل في بطنه أحقاد وضغائن غائرة لم تُشْفَ. أنهارٌ حمراء منتفخة تخترق ساقيه. وقدماه المهترئتان مختومتان ببقع مائلة للّون البني لم تزل تؤلمه.

ومن كلّ جسده تفوح رائحة العرق والمازوت والأرز والزبدة.

بشرتك هي سجادة إيرانية: تروي لي حكايات فارسيّة تفوح بالدم والعنف. بشرتكَ هي كتابٌ غريب تركْتَني أتصفّحه خلال عناقاتنا الغراميّة.

ثمة ندبة على جبينكَ وخدكَ. كنتُ في سن السادسة عشرة من عمري، هجرتني فتاة كنتُ أحبها، وبعد أن تلقيتُ آخر اتصال منها، اندفعتُ نحو نافذة غرفتي. وتحطّم الزجاج على وجهي.

ثمة أثر حرق على عنقكَ. إنَّه حادث سيارة، كنتُ أقود وأنا في حالة ثمل شديد، فدخلتُ في جدار. أحرق الحزام بشرتي. كنتُ أريد الموت.

هنالك ندبة جميلة على جذعكَ، بجانب القلب. تشاحنتُ مع والدي فتجرعتُ زجاجة تاكيلا دفعة واحدة ثم أخذتُ سكين مطبخ وجرحتُ نفسي وإمعاناً في زيادة الألم، نثرتُ الملح وعصرت الليمون على الجرح. إنَّه كوكتيل تاكيلا خاص بي.

على فخذكَ ندبة كبيرة تخترقه. صادفتُ فتاة تتعرّض لمضايقات من بعض الرجال في الشارع. أردتُ الدفاع عنها، فتشاجرتُ مع الرجال. كانوا أربعة. طعنني أحدهم في فخذي. ونجحتْ الفتاة في الهرب.

على ركبتكَ، هنالك شيء قاسٍ تحت الجلد. إنَّه برغي زرعوه لي. حادث دراجة ناريَّة، كنتُ أسابق سائق دراجة آخر مثل مغفل. انزلقتُ. وتحطّمَت ركبتي على الأرض.

في باطن قدميكَ، بقع مائلة للّون البني. إنَّها حروق لفافات

تبغ. سجنوني لأنَّني كنت أبيع المخدرات. أحرقوني بلفافات التبغ لأعترف بأسماء الأشخاص الذين يزوِّدونني بالمخدرات.

ولو أنَّني حلقتُ شعر رأسي لرأيتِ عليه بقعاً أخرى: زجاجات وكؤوس كسروها على جمجمتي أثناء مشاجرة جماعيَّة في الشارع أو أثناء السهرات.

ووقعتُ في غرامكَ. وقعتُ في غرام أكبر سوقي في طهران. ومرة أخرى أيضاً، سقطتْ إيران فوقي. لم يحطّمني ثقلها: جراحكَ ضمَّدت جراحي.

أنت تقود دراجة ناريَّة. وأنا جالسةٌ خلفك. أتشبَّث بجذعك المتين كما أتشبَّث بعملاق. ينزلق وشاحي عن رأسي وتتطاير خصلات من شعري. أتذوق حريَّة لذيذة مصنوعة من الخطر والجنون. تقول لي كلمات حبّ وأنت تقود. تصرخ: «أنا متيم بكِ أيتها الآنسة الباريسيّة، أنا رجل طهران البرّي».

أضحكُ وحملتْ الريح الحارة التي تهبّ على هذه المدينة في شهر أغسطس عام 2003 كلّ رنة من ضحكاتي لتُلقيها في أذنِ عابرٍ أو عابرة.

مضت الساعات فوق هذه الدراجة. جَعَلْتَني أكتشفُ الأزقة الفقيرة والسيئة السمعة جنوب طهران. رأيتُ الوجوه والفقر والدين الزاهد وشادور النساء الأسود والنساء الغربان والمنقّبات، وأطفال يلعبون بكرة مثقوبة، رأيتُ التجار وأكشاكهم البائسة والمنازل

المتداعية التي تفوح منها رائحة الأرز والكركم، ورأيتُ رجالاً يسبّحون بسبحاتهم ويمسّدون لحاهم.

ينظر المارّة إلينا ونحن نجتاز هذه الشوارع، يلتفتون برؤوسهم عند عبورنا. وشاحي الأحمر ومعطفي الأصفر، كنزتك الخضراء وبنطالك الجينز الأزرق، هُم البقع الوحيدة الملونة في هذا المشهد الشاحب، المغطى بالغبار.

إنَّنا شابان لامعان فوق لوحة رمادية.

- جسدكَ هو إيران.

تنفجر ضاحكاً. تنظر إليَّ بهيئة مسليّة.

- آه أجل؟ وكيف تفكرين لتتكلمي بهذه الطريقة؟ من أين تأتين بمثل هذه الأشياء؟

- أنا شاعرة يا سيّد.

- لاحظتُ ذلك. جسدي المملوء بالحُفَر هو إيران؟

- أجل جراحك وسحجاتك وندوبك هم رمزٌ لإيران المرضوضة والمشوّهة. إيران التي دمّرها آيات الله. إنَّك تجسِّد الشباب المحطّم، وليس الشباب فقط، وإنَّما البلد بأكمله.

تقهقه عالياً. ثم تحتضن وجهي بين يديك.

- لم يخطر ببالي قط أنَّ الخروج بصحبة مثقفة سيكون مضحكاً إلى هذا الحدّ.

- «مضحك»؟ أحدِّثكَ عن أمر في غاية الجدّيّة وأنتَ تجده «مضحكاً»؟

تُغلق فمي وأنت تقبِّلني بكل عذوبتك الوحشيَّة.

ذهاب وإياب إلى الحياة

سبتمبر 2003 - طهران - أمسيّة رحيلي

- لا، لن أغادر. لن أستقل الطائرة.

تتنهّد جدتي. تبدو مرهَقَة. أشعر أنَّني أُنْهكها منذ أسبوع وأنا أصرّ على رغبتي بالبقاء والعيش في إيران.
يرنُّ الهاتف. ترتفع السمّاعة. إنَّها أمي وتريد أن تكلّمني.

- هل ستستقلين الطائرة أم لا؟
- لا، سبقَ أن أخبرتكِ بذلك. لن أعود أبداً إلى فرنسا.
- ماذا تقولين؟ أنتِ فقدتِ عقلكِ.
- إنَّها بلدي وسأبقى فيها.
- هل تريدين ارتداء الحجاب؟ هل تريدين العيش في ظلّ الشريعة؟ هل تريدين أن تُعَامَلي كمقرفة لأنَّ لديك مهبل؟ هذا هو بلدك.

- أجل أقبل ذلك. أشعر هنا أنَّني في منزلي.

- تباً لكِ يا مريم، إنْ لم تعودي سآتي للبحث عنكِ بنفسي.

- لا تستطيعين، أنتِ لاجئة سياسية.

- سآتي حتى لو تعرضتُ للموت في سبيل ذلك.

- اسمعي، لم يعُد هنالك طائلٌ اليوم من لعب دور الأمهات المسؤولات، ولّى هذا الزمن. أغْلَقَتْ سماعة الهاتف. لقد أغْضَبْتُها.

لا يهمني. لن أعود. ستتفهّم الأمر مع الزمن.

ألتفتُ نحو جدتي. وجهُها عابسٌ. تطلب مني أن أشعل لها لفافة تبغ وأُحَضِّرَ الشاي.

تدخّن بصمتٍ لفافة التبغ دون أن تنظر إليّ.

تسحقها في المنفضة وتشرب الشاي. لا أحب اللحظة التي يُصبح فيها وجهها قاسياً ومتسلطاً.

- اسمعيني جيداً يا مريم. اسمعي ما سأقوله لكِ ولن أكرِّره مرتين. إذا رفضتِ أن تعودي إلى فرنسا هذا المساء، فستحطّمين أعمدة حياتك. ستصبحين ورقة، ورقة يابسة في مهبّ الريح. عدتِ إلى هذا البلد بعد كلّ هذا الزمن وغرقتِ في بحر الأصول. كان يجب توقّع ذلك. هذا طبيعي. لكنَّني لن أدعكِ تحطّمين حياتك. لقد دفع أهلك ثمناً غالياً حتى يربّونك هناك.

- طبعاً، وهناك أيضاً الدَّيْن، لهم دَيْنٌ في رقبتي، لا أطيق هذا الدين. أريد أن أعيش في إيران. إنَّها وطني: «فاتانام».

- «فاتانت»؟ وطنك؟ انتحار أجل. إنك حرة أكثر ما ينبغي بالنسبة إلى هذا البلد. تربيتُكِ جعلت منك امرأة حرّة، ولن تتحملي العيش هنا.

أنهض وآوي إلى الغرفة وأصفق الباب خلفي. أبدأ في البكاء. إنني محاصَرَة. لم أعُد أستطيع العيش في فرنسا. ولا يسعني العيش في إيران. أرغب أن أختفي.

أسمع جدتي تصرخ:

- ستعودين إلى باريس، وإلّا سأقتل نفسي. يمكن أن تتأكّدي من ذلك.

وكما هو الحال غالباً في عائلة أمّي، يرغب الجميع بقتل أنفسهم حين يشتدّ الصراع. أنا أيضاً ورثتُ هذا الميل المزعج. أصرخ من حجرتي:

- إنْ عدتُ، سأقتل نفسي. يمكنكِ أن تتأكدي من ذلك.

- مريم، عودي إلى الصالون، أرجوكِ.

ها أنذا أقف أمامها. تتوسل إليَّ بصوت متهدّج أن أعود وأوافق أخيراً.

كانت هذه رحلتي الأولى، عَودتي الأولى إلى الأرض الأم، انحداري الأول نحو الأصل. انحدار أم سقوط، لستُ أدري. كدتُ أفقد رشدي. انزلقتُ على هويتي. وسقطتُ.

حدثَت إيابات أخرى بعد ذلك، فترات عودة أقصر، أكثر هدوءاً

ووضوحاً وأقل إيلاماً، والرأس مثبت فوق قاعدته. نهضتُ من جديد.

ثمة عزاء أيضاً في العودة الأخرى: العودة إلى فرنسا وإحساسٌ بأنني أشعر فيها كأنّني في منزلي رغم كلّ شيء. أصبحت إيران لا تُحتمل أكثر فأكثر، بعد أن تحررتُ من أوهامي وتصوّراتي المثاليّة. لم أنسب الكمال قط إلى فرنسا، لكن إيران تناديني دوماً، بصوتٍ خافت، إنَّها موجودة ورائي، تربِّت على كتفي لكي تذكّرني بنفسها. أشعر أنَّ ثمة ما يدفعني للعودة إليها بانتظام، بدافع الواجب، بدافع الشعور بالذنب، بسبب خشيتي ألَّا أرى ثانية العجائز، بسبب الطقوس، وربما بسبب الحب أيضاً.

امرأة حرّة؟

«تربيتك جعلت منكِ امرأة حرة، لا يمكنكِ العيش هنا...»

هذا قرار: سنعود جميعاً لنعيش في إيران. وضعتُ المنزل في إعلان للبيع. يأتي أناس لزيارته.

عمري اثنا عشر عاماً. إنَّه فصل الصيف. أمتطي دراجتي في شارعنا مرتدية سروالاً قصيراً وصداراً. يراقبني أبي ويقول لأمّي قَلِقاً ومتأملاً: «لن تستطيع أن تفعل هذا في إيران أبداً، هذا الشيء البسيط جداً: امتطاء دراجة مرتدية سروالاً قصيراً وصداراً. لا يمكننا المغادرة. لا يمكنني أن أسلبها هذه الحريّة البريئة».

عمري ستة عشر عاماً. إنني مغرمة بأحد الفتيان. أريده أن يأتي وينام في المنزل. يغضب والدي ويصرخ ويضرب بقبضته على الطاولة. إنَّه أحمر تماماً، مذهول، لم يهيئ نفسه قط لمثل هذا الموقف. أقاوم وأصرّ. وفي نهاية المطاف أُرْبِكُه: «أجل يا ابنتي مريم تركنا إيران حتى تترعرعي في بلد حرّ وعصري وتحصلي على

تربية حرة وعصريّة، لكي تصبحي ذات يوم امرأة حرة وعصرية. يا لها من مزحة!» أصعدُ إلى غرفتي وأصفق الباب خلفي بكلّ ما أوتيت من قوة.

يناديني أبي بعد بضع ساعات. أنزل. «تناقشتُ مع أمك وساعدَتْني على أن أفهم أنَّكِ لا ترتكبين أي خطأ حين ترغبين بدعوة هذا الفتى إلى منزلنا. لدي فضول للقائه».

عمري ثمانية عشر عاماً. أقفز إلى أحضان حبيبي. لديه صوت غينسبورغ ورأس بريل. إنَّني متيمة به. نتبادل القبل على مقاعد قناة سان-مارتان، وأحياناً ندخن ونتحدث حتى الفجر ونحن نتمشّى على امتداد أرصفة نهر السين. يغني لي: أغنية «الترومبون الأسود» أو «أغنية بريفيرا» لغينسبورغ.

لا يعبأ المارة. فنحن نشكِّل معاً عالماً واحداً، وهذا العالم تحميه باريس.

عمري عشرون عاماً. نافذة السيارة مفتوحة، وشعري يسوط وجهي ويدي تحاول أنْ تلتقط الريح. إنَّني ثملة وأضحك.

الوقت متأخر. أركض لألتقي حبيبي الثري. يقرقع كعبا حذائي على الرصيف الباريسي. ألتقط فم الرجل وسط الطريق، أشربُ رغبته وعرقه دون خوف أو وجَل.

أجلس مع صديقة على درجات ساكري-كور. تنبسط باريس

تحتنا وتصغي إلينا. ننشد لها قصائد بودلير ورامبو كما تنشد عاشقة لحبيبها وزجاجة نبيذ تنتقل من يدٍ إلى يد.

عمري ثلاثون عاماً. سافرتُ شهرين إلى الصين. أنا في بكين ويجب أن أستقلّ الطائرة بعد ساعتين وأعود إلى باريس. إنَّني في حانة، يحيط بي المغتربون المقيمون في بكين منذ سنوات. نشرب ونغني، وليست لديَّ أدنى رغبة في أن أستقل الطائرة. يتحدّونني أن أبقى معهم. «سترين، ستكونين سعيدة في الإمبراطوريّة الوسط». يلحّون. يثيرني التحدي. جنون تفويت موعد طائرتي عمداً: تأكيدٌ مطلق لحريّتي في هذا الوقت المبكر والندي من الليل.

أهبُّ واقفة فجأة، أرفع كأسي وأقول بصوت عالٍ: «سيداتي سادتي سأبقى».

وبقيتُ فيها أربع سنوات.

عمري أربعة وثلاثون عاماً. تتابع عيناي التقدم البطيء والهادئ لسفن ضخمة محمَّلة بالبضائع تعبر البوسفور. أعيش في إسطنبول منذ عام. عشقتُ هذه المدينة، لكن وهناً أصاب حبنا الآن.

الآن فقط بعد خمس سنوات من العيش في الخارج، أرغب أن أستقل هذه الطائرة التي ستأخذني إلى باريس.

حافظ في سيارة أجرة

2012 - طهران - في سيارة أجرة

منوعات موسيقيّة إيرانيّة تسبِّب لي الصداع. لا بدّ أنّ سائق سيارة الأجرة في الخمسين من عمره. لحيته قصيرة وشعره الأشيب مبثوث في أعلى رأسه؛ ثمة هالات سوداء تحت عينيه ويدخن.

لا أقول شيئاً. أنتظر أن ينتهي هذا.

ينظر إليّ في المرآة. يسألني إن كنتُ من هنا.

- أجل، أنا إيرانيّة. كما ترى، أتحدث الفارسيّة.

لديك لكنة. لكنة أجنبيّة. من أين جئت؟

- نشأتُ في فرنسا.

- آه، هكذا إذاً، في باريس؟

- أجل.

- أنتِ محظوظة.

- أجل لكن ذلك لم يكن سهلاً. المنفى كما تعرف...

- الحياة في إيران هي الجحيم. من الأفضل للمرء أن يكون

منفيّاً على أن يتعفّن هنا. من الأفضل له أن يتألم في فرنسا على أن يتألم في إيران، صدقيني.

- أنتَ لا تحب هذا البلد؟

- بلى أحبها، أحبها مثل أمي. لكن انظري حولك: هؤلاء القادة المغفلون يستنزفوننا من كلّ حدب وصوب. لقد عِيْلَ صبرنا.

- سيتغير هذا، إنَّني واثقة. لن يستمر الوضع على هذه الحال إلى الأبد.

- ليسمع الله منكِ. لكننا خائفون. عندنا برابرة دمويون وليس برابرة الغرب أرحم. هل هاجر أهلك قبل الثورة؟

- بعدها بسبع سنوات.

- معهم حق. انظري كم ساءت الأحوال منذ ذلك الحين.

يطفئ المذياع. أشعر بالارتياح. يُشعل لفافة تبغ.

مى خور كه شيخ وحافظ ومفتى و محتسب
چون نيك بنگرى همه تزوير مى كنند
حافظا مى خور و رندى كن وخوش باش ولى
دام تزوير مكن چون دگران قران را

هذه قصيدة لحافظ، لا أدري إن كنتِ تحبين الشعر.

- أعبد الشعر! درستُ قصائد الخيام في الكليّة. حسن، لم أفهم كلّ شيء. لكنني أعتقد أنَّني التقطتُ الأساسي.

سأترجمها لكِ إلى لغة أبسط، يقول:

«واشرب الخمر... فإنّ حافظاً والشيخ والمفتي والمحتسب

جميعهم -إن أمعنت النظر- منافقون. اثمل يا حافظ وتمتَّع بالذكاء والسعادة. لكن إياكَ أن تسقط في فخ الرياء مثل أولئك الذين دنّسوا القرآن».

- إنَّها لشجاعة أن يقول هذا في القرن الرابع عشر!

- سأخبركِ بأمر يا سيدتي الصغيرة، الشيء الوحيد الذي استطعنا الحفاظ عليه هو شِعرنا وهو الشيء الوحيد الذي يستحق النجاة في إيران.

تدلف سيارة الأجرة في زحام خانق يمتدّ على مسافة أربعة كيلومترات تقريباً تحت سماء ملوّثة وحرارة خانقة، أصوات زمامير في كل مكان، ورائحة بنزين نتنة تملأ الهواء، يلتصق وشاحي بشَعري ويزعجني معطفي لكنَّني سعيدة لوجودي في هذه الفوضى الجهنميّة لأنَّني سمعت للمرة الأولى في حياتي سائق سيارة أجرة يردِّد الشعر أمامي.

كان يا ما كان

كلمة

ترددتْ بلا انقطاع
انتشرت فوق سطح الأرض
غرقت في أعماق العيون
انزلقت الهوينى على البشرة
وعزَفَت دقات القلوب إيقاعها

كان يا ما كان

ذاكرتي الطفوليّة

عمود رخام فتّته الشمس
جبل يغوص في البحر

حلمٌ يرويه القمر للنجوم كلّ ليلة
هو دوماً ذاته

والحكاية تدور في حلقة مفرغة
الموسيقى تتلعثم
حلبة الخيول الخشبيَّة تتباطأ
تُرْهَقُ الجياد

أشعر بدوار السنين

لكنَّني أريد الرقص أيضاً وأيضاً
على أنغام هذه اللازمة الرتيبة والباليَة

التي تتكرَّر بلا كلل ولا ملل
كلمة

تُطَيِّرُها الريح
كحجاب النساء
حين يمشين ويتلاشين في أزقة ذاكرتي الضيقة
هبّي
هبّي

يا ريح حياتي
هبّي
هبّي
واجعلي الذكريات ترقص

إنَّني إكليل كلمات معلّق فوق شجرة يشير إليه طفل بإصبعه.

«- سندفنها في الحديقة، عند جذع الشجرة. هذا أفضل مخبأ.

- ولماذا نفعل ذلك؟ أنت تعرفين أنّنا لن نعود أبداً، وحتى لو عدنا فإنّ هذا المنزل وهذه الحديقة لن يكونا موجودين.

- لا يهم، علينا فعل ذلك. لا يمكننا إلقاؤها أو إحراقها، أو الأسوأ تقديمها لأيّ شخص.

- أجل، هذا صحيح. ستكون هدية مسمومة.

- اذهبي وأحضري الكتب، أنا سأحفر الحفرة.

وتضع الأم في هذه الحفرة ماركس وأنجلز ولينين ومكارينكو وتشي غيفارا وآخرين، ويُهيل الأب فوقها التراب الرطب.

الفتاة الصغيرة موجودة هناك. تراقبهما وهي واقفة عند المدخل. تقول في سرّها إنّ هذه الحديقة صارت تحتوي الكثير من الأشياء: دُماها، والآن كتب أبيها الممنوعة.

أقسمَت أن تعود وتنبش كلّ هذا، فيما بعد، حين تستطيع».



وُلدت مريم مجيدي في طهران عام 1980، وغادرت إيران مع عائلتها في سن السادسة لتعيش في باريس، ثم في درانسي، حيث تعلّم اليوم اللغة الفرنسية.

ماركس والدمية هي روايتها الأولى، وهي مستوحاة بشكل كبير من سيرتها الذاتية.



«رواية أولى رائعة».

مجلة ليكسبريس

ISBN 978-9953-68-862-6





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com